أولاد الناس بمجتمع عصر سلاطين المماليك

الملف

Respectable People In The Society of Mamluk Sultans Era

د.نهلة أنيس محمد مصطفى

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية الدراسات الإنسانية – جامعة الأزهر

القاهرة – جمهورية مصر العربية

dr_na_mostfa@hotmail.com

الأوضاع الاجتماعية لأولاد الناس

- **الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

نهلة أنيس محمد مصطفى ، أولاد الناس في مجتمع عصر سلاطين المماليك: الأوضاع الاجتماعية لأولاد الناس.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٨٢ – ٩٦ .
(www.historicalkan.co.nr)

تعددت الأوضاع الاجتماعية لأولاد الناس داخل المجتمع المصري خلال عصر سلاطين المماليك وتشعبت اتجاهاتها ، فقد شكل أولاد الناس فئة من طبقة المماليك ، وهي الطبقة الأوّلى بالرعاية من جانب السلاطين باعتبار أنهم يشكلون طبقة خاصة بهم تمثلت في السلطان ونخبة الأمراء المماليك ، ولكن إذا صح القول أن طبقة المماليك تنقسم إلى فئات أو على الأقل يمكن أن يوجد بها من هم في المنزلة الثانية من نفس الطبقة ، فبعض الدراسات الحديثة تشير إلى أن مجتمع المماليك في المدن المملوكية تكون من طبقة مميزة وهي الخاصة وطبقة العامة وكان بين الطبقتين فئة ثالثة وهم الأعيان ، فيكون هناك الأعيان من المماليك وإذا صح القول فيندرج تحتهم أولاد الناس والأعيان من العامة وهم العلماء والفقهاء وأعيان التجار وهو ما اصطلح على تسميتهم بياض العامة.

ولو اعتبر أولاد الناس من أعيان المماليك فهم جزء لا يتجزأ من طبقة المماليك حيث يشكلون فئة من فئاتها ، وبالرغم من أنهم شكلوا العنصر الثاني من الطبقة المملوكية العسكرية الممتازة كما وصفهم المؤرخون المحدثون ، إلا أنهم تفاعلوا في المجتمع المصري تفاعلا كبيرا حيث استطاع رغم مكانتهم الهامة أن يجذبهم بين جنباته ، وخاصة أنهم كثيرا ما حاولوا الابتعاد عن الحياة السياسية العسكرية التي يحيا آباؤهم في ظلها ، واختار البعض منهم حياة مختلفة عما كان عليه أسلافهم ، حتى أن أحفاد المماليك أبناء أولاد الناس وهم الذين شغلوا مكانة أدنى من مكانة أولاد الناس سرعان ما امتصهم المجتمع المصري وذابوا فيه بعد جيلين أو ثلاثة وأصبحوا نسيجاً واحداً مع بقية طبقات المجتمع.

وبالرغم من ذلك إلا أننا وجدنا حياة اجتماعية لأولاد الناس وأبنائهم وأيضاً لأحفادهم ، نحاول أن نتعرف على هذه الحياة الاجتماعية والتي شملت كافة أولاد الناس سواء من أبناء السلاطين (الأسياد) وبناتهم أو أولاد الناس أبناء الأمراء حيث نميط اللثام عن نقاط كثيرة تتعلق بحياتهم الاجتماعية والتي استطعنا التوصل إليها من خلال البحث بين ثنايا سطور المصادر المملوكية فلنحاول استنطاق هذه المصادر لنصل إلى حقيقة ولو شبه مكتملة عن حياة أولاد الناس الاجتماعية في عصر سلاطين المماليك.

أبناء السلاطين (الأسياد) بالمجتمع المصري

استطاع السلاطين المماليك بعد فترة الحكم الانتقالية التي عبروا بها خلال التاريخ السياسي للدولة منذ اعتلاء شجر الدر عرش مصر وإلى تنصيب السلطان الظاهر بيبرس السلطنة إرساء قواعد أساسية لنظام الحكم المملوكي ، ومن الممكن القول أن الظاهر بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك ، فقد قام بجهود كبيرة في تدعيم دولة المماليك والدفاع عنها ضد أعدائها وخاصة المغول والصليبيين ، وباعتبار أن الظاهر بيبرس قد مكث في حكم مصر والشام فترة أطول من سابقيه مما ساعده على إنجاز الكثير من المشاريع التي تساعد على تثبيت دعائم الحكم وتقعيد أصوله داخلياً وخارجياً ، ومن هنا يمكن القول أن دولة المماليك في عهد بيبرس اتخذت طابعاً مميزاً ظل مصاحباً لها حتى نهايتها ، وباعتبار أن الظاهر بيبرس تقلد مقاليد الأمور بعد قتله للمظفر سيف الدين قطز فهو إذن لا يعترف بمبدأ وراثة العرش ، بل يرى أن من يصلح للحكم هو الأقدر والأقوى وبالرغم من ذلك فقد غالبته عاطفة الأبوة ونراه في أواخر عهده يحاول تولية العرش لابنه السعيد بركة.

ومن خلال العصر المملوكي الأول ظهر لنا العديد من السلاطين أبناء الملوك فقد حظي هؤلاء السلاطين بكثير من الدراسة والبحث ، والتنقيب في سيرهم وكتبت العديد من المؤلفات عن عهودهم وترجماتهم ، وأحوال السلطنة السياسية والاقتصادية والاجتماعية أثناء فترات حكمهم ، وأطال المؤرخون القدامى منهم والمحدثون في التعريف بسير هؤلاء السلاطين أبناء الملوك منذ عهد المنصور علي بن أيبك ٦٥٥-٦٥٧هـ/١٢٥٧-١٢٥٨م وروراً بعهود السعيد بركة ٦٧٦-٦٧٨هـ/١٢٧٧-١٢٧٩م ، والعادل سلامش ٦٧٨هـ/١٢٧٩م ، وصولاً إلى أبناء وأحفاد الناصر محمد بن قلاوون وهم الذين ظلوا على عرش دولة المماليك طوال العصر المملوكي الأول.

وعادة ما كان يؤول أمر هؤلاء السلاطين أبناء الملوك "الأسياد" إلى أحد ثلاثة أمور أولها ، القتل وجلوس أحد غيره في دست السلطنة ، وثانيها العزل والحبس في دور قلعة الجبل ، وثالثها من يموت منهم على سرير الملك دون القتل والعزل فمن طبق عليه منهم الأمر الأول السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الألفي ٦٦٦-٦٩٣هـ/١٢٦٧-١٢٩٣م والسلطان المنصور أبو بكر بن الناصر محمد ٧٤١-٧٤٢هـ/١٣٤٠-١٣٤١م. والسلطان الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون ٧٤٥هـ/١٣٤٤م ، والكامل شعبان بن محمد بن قلاوون ٧٤٦-٧٤٧هـ/١٣٤٦م والمظفر حاجي بن محمد بن قلاوون ٧٤٨هـ/١٣٤٨م ، والسلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ٧٤٨-٧٦٢هـ/١٣٤٧-١٣٦٠م والسلطان الأشرف شعبان بن حسين ٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٧م وأما من مات على فراشه وهو على سرير الملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون ٧٤٦هـ/١٣٤٥م ، والسلطان المنصور علي بن الأشرف شعبان بن حسين ، وهو أول سلطان من أحفاد أحفاد الناصر محمد بن قلاوون ، فقد ظل على سرير الملك ويدير أمر المملكة والمماليك حتى أصيب بالوباء الذي انتشر بمصر عام ٧٨٣هـ/١٣٨١م.

أما من توفي منهم بعد عزله وحبسه في دور القلعة ، الملك الأشرف كجك بن الناصر محمد وقد ولي السلطنة وعمره خمس سنوات في عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م ومكث بها مدة يسيرة حتى حضر أخوه الناصر أحمد وعزله وقتل مدبر مملكته الأمير قوصون الساقي الصالحي ، وأدخل الأشرف إلى الدور السلطانية بالقلعة إلى أن مات عام ٧٤٦هـ/١٣٤٥م في عهد أخيه الأشرف شعبان والملك الصالح صالح بن الناصر محمد ٧٥٢-٧٦١هـ/١٣٥١-١٣٦٠م ، ولد بقلعة الجبل وظل بها في الدور السلطانية إلى أن طلب للسلطنة وأصبح الأمير طاز الناصري مدبر مملكته وصاحب الحل والعقد فيها ولم يكن السلطان الصالح معه سوى الاسم واستمر حاله على ذلك حتى خلع ، ولزم بيته في قلعة الجبل وظل محبوساً بها حتى توفي سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م ودفن بمقبرة عمه الملك الصالح علي بن قلاوون بالخاتونيه بالقرب من المشهد النفيسي

أما الملك الصالح حاجي والذي قلد السلطنة مرتين الأولى لقب بالصالح والثانية لقب بالمنصور ، قلد السلطنة بعد موت أخيه المنصور علي بن شعبان عام ٧٨٣هـ/١٣٨٠م وكان مدبر مملكته الأتابك برقوق إلى أن خلعه وجلس هو على كرسي السلطنة ، ثم أعاده الأمير منطاش والناصري مرة أخرى إلى السلطنة ولقب في هذه المرحلة بلقب المنصور عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م وعندما انقضت الفتنة وعاد برقوق خلع

المنصور نفسه من السلطنة ، فعامله الظاهر برقوق معاملة طيبة ولم يرسله إلى ثغر الإسكندرية بل أدخله إلى دور الحريم ورتب له ما يكفيه ، واستمر على ذلك إلى أن مات على فراشه في عام ٨١٤هـ/١٤١١م في عهد الناصر فرج بن برقوق ودفن بمقبرة جدته خوند بركة في التبانة ، وكان يبلغ من العمر نحو سبع وأربعين سنة.

أما بالنسبة للعصر المملوكي الثاني فالأمور لا تختلف فيه كثيراً ، فكان حال السلاطين شبيهاً بأحوال سلاطين العصر الأول ، إلا أنهم اتخذوا بديلا آخر غير سكنى السلاطين المخلوعين من أبناء السلاطين الدور السلطانية بقلعة الجبل ، بل كان السلطان يرسل بهم إلى ثغر الإسكندرية ليسجنوا هناك.

وكما ذكرنا لسنا هنا بصدد الحديث عن الملوك أولاد السلاطين الذين حكموا مصر ثم عزلوا عن منصب السلطنة إلا أننا وجدنا خلال العصر المملوكي الثاني ما يستحب توضيحه بالنسبة لهؤلاء الأمراء أبناء السلاطين الذين تسلطنوا ولم يكن لهم نصيب كبير من السلطنة وعوقبوا بالنفي إلى ثغر الأسكندرية ، ثم أصبحت لهم حياة إجتماعية أخرى تختلف عن سابقيهم ومن هنا أردنا التوضيح البسيط لحياة هؤلاء خلال عهود اللاحقين عليهم من سلاطين الجراكسة ، وباعتبار أنهم كانوا من الأسياد فهم جزء مكمل لأولاد الناس ، ولابد من الإشارة إلى كيفية حياتهم الإجتماعية التي عاشوها ، وخاصة أن سلاطين المماليك أمثال الأشرف برسباي والظاهر جقمق والظاهر إينال وغيرهم قد سلكوا معهم مسلكا طيبا باعتبار أنهم كانوا سلاطين وأبناء أساتذتهم إلا أن الحال لم يدم لهم.

أما السلطان المظفر أحمد بن المؤيد شيخ المحمودي فلم يكن حظه أفضل من حظ سابقه ، بل كان نصيبه من السلطنة الحجر والتضيق والحبس حتى الموت ، أقيم في السلطنة عقب موت أبيه عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م وتولى الأمير ططر أمير مجلس تدبير أمور المملكة ، ثم زاد طموحاً فتزوج من أم السلطان خوند سعادات زوجة المؤيد شيخ حتى يضع يده أكثر على السلطنة وأخذ ططر يدبر لخلع المظفر أحمد وسلطن نفسه في نفس العام ، وحبس السلطان في القلعة ، ثم نقل الملك المظفر مع أخيه الصغير إلى الإسكندرية ، فسجنا بها إلى أن مات بالطاعون عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م ، ثم نقل إلى القاهرة ودفن في تربة أبيه بالقبة التي بالجامع المؤيدي "وأفادته السلطنة الحول والحبس إلى أن توفي ، فكل هذا من سوء تدبير والده ، حيث جعل العهد في هذا الطفل" وكان المظفر أحمد قد أصيب بالحول عندما دقت الكوسات أثناء العهد إليه وكان يناهز من العمر سنة واحدة فقط.

وتقلد العزيز يوسف بن برسباي السلطنة بعد من أبيه عام ٨٤١هـ/١٤٨١م وظل بها قرابة المئة يوم إلى أن خلعه الأتابك جقمق العلائي بعد اضطرابات عدة وتقلد السلطنة ولقب بالظاهر ، وأسكن العزيز يوسف بقاعة البربرية بالقلعة ، وليس بالدور السلطانية ، غير أن العزيز خشي عاقبة الأمور فهرب من قاعة البربرية وكان بعض أتباعه قد زين له إنْ خرج فإنّ أتباع أبيه سيقومون معه واستمر فترة وهو هارب والظاهر جقمق في قلق شديد من هروبه وخشية من المماليك الأشرفية برسباي ، حتى ظفر به الأمير يلباي- الذي قلد السلطنة فيما بعد — وسر الظاهر سروراً عظيماً وقام بحبسه أياماً في قاعة العواميد بالقلعة عند زوجته خوّند البارزية ، ثم أرسله إلى الأسكندرية فسجن برج الأسكندرية مدة طويلة ، وأرسل معه ثلاث جواري لخدمته ، ورتب له في كل يوم ألف درهم من أوقاف أبيه.

ويعد الملك المنصور فخر الدين عثمان من السلاطين المماليك الذين اختلفت حياتهم الاجتماعية تماماً بعد خلعه من السلطنة ، وبالرغم من العقبات الكثيرة التي اعترضت حياته ، فقد تقلد السلطنة في حياة أبيه وأثناء مرضه عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ، وكان له من العمر نحوا من تسع عشرة سنة وقد مارس الحياة السياسية في حياة والده ودرب على أمور السلطنة وتبعات الحكم ، فضلاً عن التبعات الاجتماعية التي كانت ملقاة على عاتقه أثناء حياة والده فكان يمارس كل هذه الأمور بصحبة والده ، فعلى سبيل المثال كان يخرج معه لأداء الصلوات ، وخاصة صلاة الجمعة بجامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة ، وكان يتجمل في خروجه فيخرج بالكلفتاه والقماش ، ورسم له أبوه أن يشرف على الخدمة الشريفة في الدورية وذلك على عادة أولاد السلاطين.

وبالرغم من أن المؤيد أحمد بن الأشرف إينال قد لحقت به كثير من المحن بعد تقلده السلطنة عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م وعزله منها على يد الظاهر خشقدم الرومي بعد حوالي أربعة أشهر فقط من جلوسه على كرسي السلطنة ، إلا أن مظاهر حياته بعد ذلك استرعت الإنتباه حيث قضى بثغر الأسكندرية حياة شبه مختلفة عن بقية الملوك الذين لم يكن لهم حظ وافر من السلطنة ، وحاله في هذا كحال المنصور عثمان والعزيز يوسف.

وقد شغل المؤيد أحمد مناصب سياسية هامة في عهد الأشرف إينال فعمره في ذلك الوقت كان يؤهله للإعتماد على النفس ، وهو الذي حمل القبة والطير على رأس أبيه أثناء تقلده السلطنة ، وقلده والده أتابكية العساكر ، وسافر على رأس محمل الحج أمير حاج المحمل ومارس جملة من المعاملات الإدارية والإجتماعية ، فكل هذه الخبرة التي اكتسبها في حياة أبيه كانت تؤهله لتولي السلطنة باقتدار "وهو أهل لها" ، ويذكر أبو المحاسن أن حاله تبدل بعدما ولي السلطنة فكان في أيام والده له مساوئ كثيرة ولما جلس في دست السلطنة تبدل حاله تماما وأقبل على العدل وإرداع المفسدين "وكان دخوله السلطنة بحرمة وافرة لأن سنه كان نحو الثلاثين سنة يوم تسلطن" ويعتبر المؤيد أحمد هو الأوحد من أبناء السلاطين الذي تقلد السلطنة في هذا السن بخلاف غيره من أمثاله الذين كانوا حديثي السن عند توليهم المنصب.

وبالرغم من أن المؤيد أحمد بن إينال كان له أيام والده جماعة كثيرة من أعيان الأمراء الظاهرية والأشرفية والسيفية يصحبونه ويمشون في خدمته في الرمايات والأسفار "وإحسانه متصل إليهم من الإنعام والمساعدة في الأرزاق والوظائف" إلا أنهم لم يخرجوا لمساندته عندما خرج عليه العسكر وعلى رأسهم الأتابك خشقدم الرومي ، بل أنهم انضموا لخشقدم ضد المؤيد أحمد ، فما كان إلا أن سلم المؤيد أحمد باب السلسلة ودخل على والدته زينب ابنة البدري حسن بن خاص بك وزال ملكه وأرسل إليه خشقدم الرومي جماعة من العسكر قبضوا عليه من الدور السلطانية فسلم نفسه ، وأخرج إلى البحرة في الحوش السلطاني وحبس بها هو وأخوه الناصري محمد وخرجت إليهما والدتهما ومكثت معهما إلى أن رسم السلطان خشقدم بإرسالهم إلى سجن الأسكندرية ، ويعلق أبو المحاسن على ذلك الأمر بقوله "على قدر الصعود يكون الهبوط وكأن لسان حال أسكندرية قبل ذلك يقول كل ثان لابد له من ثالث ، فالأول فمن كان فيها من السلاطين الملك العزيز يوسف ابن الأشرف برسباي ، وقد خلعه الملك الظاهر جقمق

وقلد السلطنة مكانه ، ثم الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق خلعه الأشرف إينال وتسلطن عوضه وهو الثاني ، فاحتاجت أسكندرية إلى ثالث ليجازى كل على فعله فكان المؤيد هذا ، خلعه الملك الظاهر خشقدم وتسلطن مكانه" وكأن أبا المحاسن استنطق الأسكندرية في هذا الحديث ، وفي هذا عبرة لمن تغرهم الدنيا وشهواتها ، ففُعل بأبنائهم ما فعلوه بأبناء الناس.

وفي عهد الأشرف قايتباي زاد السلطان الأشرف في إكرام المؤيد أحمد والإحسان إليه ، وصاهره الدوادار الكبير يشبك من مهدي على ابنته ، وعندما سافر الأشرف قايتباي إلى الأسكندرية زينت له المدينة زينة فاخرة وخرج إلى لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال وهو بالشاش والقماش ، وحمل الأتابكي أزبك من طخ القبة والطير على رأس السلطان والملك المؤيد أحمد والأمراء بين يديه أمام الأمراء وأعيان المباشرين وأرباب الدولة.

ولكن يبدو أن هؤلاء الذين كانوا سلاطين أبناء سلاطين قد قنعوا من الدنيا بما أخذوا وأحبوا العيش في أمان على أن يقدموا على أمر لا تحمد عواقبه ، وظل المؤيد أحمد يعيش حياته بالأسكندرية حتى وفاته عام ٨٩٣هـ/١٤٨٧م وكان عمره آنذاك فوق الخمسين سنة وقد أحضر جثمانه من الأسكندرية ودفن بقبر أبيه في القاهرة.

الأسياد (أبناء السلاطين)

الذين لم يقلدوا السلطنة

تواجد الأسياد أبناء السلاطين الذين لم يقلدوا السلطنة في المجتمع المملوكي ومنذ العهود الأولى من قيام الدولة التركية ، وقد قلد هؤلاء مناصب في الدولة المملوكية ولكنهم كانوا دائما في الاعتبار الأول أبناء سلاطين (أسياد) ، ومن هنا اكتسبوا أهميتهم ، وربما أن الأضواء لم تسلط عليهم تماما مثلما حدث مع إخوانهم الذين كان من نصيبهم الجلوس في دست السلطنة ، وربما أن البعض منهم أضير باعتبارهم أخوة لسلاطين.

والسلطان في التاريخ المملوكي كان يخشى المنافسة حتى من أقرب أقربائه ، وتعرض البعض منهم بالفعل للقتل من ذويهم والأمثلة على ذلك كثيرة بسبب الصراع على السلطة والمحافظة على كرسي السلطنة وأهم من فعل ذلك السلطان الناصر فرج بن برقوق عندما اتهم بقتل أخويه المنصور عبد العزيز وإبراهيم ابني الظاهر برقوق.

وعلى أية حال فإن حياة هؤلاء الأمراء أبناء السلاطين الاجتماعية كان يكتنفها بعض الغموض بسبب بعدهم عن الحياة السياسية والتي كانت دائما هي محور اهتمام مؤرخي ذلك العصر ، فلم نجد في كتب الحوليات التي تؤرخ للعصر المملوكي وهي متوفرة في المكتبة التاريخية المملوكية ما يمكننا من تسليط الضوء على حياة هؤلاء الأمراء ، وربما وجد النذر اليسير عنهم في كتب التراجم التي تؤرخ لتراجم الرجال ، إلا أننا لم نستطع حصر كافة أبناء السلاطين (الأسياد) لأسباب عدة منها من توفي منهم صغيراً فلم نجد إلا الإشارة عن اسمه ، ومن لم يكن له دور سياسي بارز ، فلم تطلعنا المصادر إلا عن القليل عن حياته ، وسبب هام آخر هو أن أهمية هؤلاء الأمراء تنبع من أهمية آبائهم ، فعلى سبيل المثال طفت أخبار بيت قلاوون وأبناء وأحفاد الناصر محمد علي أخبار أبناء العادل كتبغا أو المنصور لاجين أو المظفر بيبرس الجاشنكير ، وغير ذلك من الأمور التي تسطح المعلومة التاريخية حتى وإن وجدت ، ومن هنا حاولنا بذل الجهد لحصر أبناء السلاطين (الأسياد) بقدر المستطاع ، وخاصة الذين كان لهم دور في الحياة الاجتماعية بالعصر المملوكي ، وسنحاول خلال السطور التالية معرفة أوضاع هؤلاء الأمراء الاجتماعية وتفاعلهم داخل المجتمع المملوكي.

ومن الجدير بالملاحظة أن أبناء الظاهر بيبرس البندقداري هم أول من لقي اهتمام المؤرخين بالنظر في أحوالهم والتحدث عنهم ، فبعد وفاة السعيد بركة خان قرر العادل سلامش في السلطنة وظل المسعود نجم الدين خضر بالكرك ، وحاول الاحتفاظ بالكرك إلا أن المنصور قلاوون لم يسمح له بذلك ، وأرسل إليه الأمير بدر الدين بكتاش الفخري للإتفاق السلمي معهم إلا أنه لم يوافق على ما عرض عليه ، فأرسل له السلطان الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة بجيش كثيف وأمره بمحاصرة الكرك ، وكان العادل سلامش قد خرج إلى أخيه في الكرك ، فارسل المسعود خضر إلى الأمير طرنطاي في طلب الأمان ، فأمنه السلطان وأنهى حصار الكرك وعاد الأمير حسام الدين طرنطاي وصحبته العادل سلامش والمسعود خضر إلى مصر ، وعندما قربا من قلعة الجبل ركب السلطان إليهما وتلقاهما وأكرم وفادتهما وأمّر كلا منهما إمرة مئة فارس.

مارس الأميران حياتهما العادية بالقاهرة فكانا يخرجان للصيد ويركبان مع السلطان إلى الميدان حتى إن البعض وصف معاملة المنصور قلاوون لهما بأنه "أنزلهما منزلة أولاده" ، إلى أن بلغه عنهما ما شوش خاطره عليهما فحدد إقامتيهما ببرج من أبراج القلعة ، وظلا كذلك حتى عهد الأشرف خليل ، الذي فضل إبعادهما عن القاهرة نهائياً فقام بنفيهما إلى القسطنطينية ومعهما والدتيهما وقام بتسفيرهم للأمبراطور البيزنطي الأمير عز الدين أيبك الموصلي أستادار السلطان فلقيهما الإمبراطور بإحسان تام ورتب لهما ما يعزز مكانتهم ، وظلا بالقسطنطينية إلى أن مات العادل سلامش فعادت به والدته مصبراً إلى مصر ودفن بها وعندما تقلد المنصور لاجين السلطنة أذن للمسعود خضر بالعودة إلى القاهرة فعاد عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وخرج لأداء فريضة الحج في عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م ، وبالرغم من عودته إلا أنه عاد محددة إقامته في برج من أبراج القلعة ، ثم أفرج عنه الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م فنزل القاهرة وسكن دار الأفرم بمصر ولكن الأيام لم تمهله طويلاً وتوفي بعد قليل على فراشه ويقال أنه سُقي سمٌ ومات عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م.

وممن ذكرت أخباره الأمير أنس (ويقال آنص) بن العادل زين الدين كتبغا ، ولقب هذا الأمير بالمجاهد ، وكان من الأمراء المماليك في عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، وشهد مع السلطان حصار عكا وأبلى فيه بلاءاً حسناً حتى أصيبت عينه ، وكان من الأمراء المشهود لهم بالفروسية والرمي بالقوس ، وبعد وفاة والده حاول الأمراء أن يقلدوه السلطنة غير أنه رفض وقال "هذا يعمل موتي وأنا لا أبصر" لأن عينه الأولى فقدت في عكا والثانية خف ضوءها ، وقد حفظ له المنصور لاجين رفضه للسلطنة فأكرمه وانزله في بيت أبيه ، وعاش حياة كريمة في ظل دولة الناصر محمد بن قلاوون فقد كان الناصر يجله ويعظمه ويقوم إليه ويجلسه بجانبه إذا حضر إليه ، وكان يقول "ما أحسن إليّ أحد بعد موت أبي مثل ما أحسن إليّ آنس" وكان إذا ما رأي أحداً من إخوته يسئ الأدب مع الناصر عندما كان كتبغا ممسكا بزمام دولته إلا زجره ونهاه وكان يتأدب مع الناصر.

وبالرغم من عدم إبصاره إلا أنه كان يخرج إلى الصيد ولا يشعر أحد أنه أعمى ، فكان يرسل الجارح من الصقور البازات ويسوق الفرس تحته ، توفي عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م ، وعند وفاته أكرم الناصر محمد

أولاده وترك لهم أوقافهم وقد باع ورثته دار كتبغا المشهورة لأم آنوك بمئة وعشرين ألف دينار.

وقد استطعنا الحصول على تراجم لبعض أبناء الناصر محمد بن قلاوون الذين لم يقلدوا السلطنة والبعض لم نحصل لهم على ترجمات، فمن أبنائه الأمير على بن محمد بن قلاوون، وترجمة هذا الأمير مختصرة جدا في الدرر ولم يذكر عنه إلا أنه كان مع والده في الكرك عندما كان مقيما بها بعد خلعه من سلطنته الثانية، ولم يكن للناصر آنذاك ولدٌ غيره، ومن هنا اكتسب محبة والده، قدم على والده إلى القاهرة في سلطنته الثالثة ولكن قدر الله أن يتوفى ووالده خارج للصيد عام ٧١٠هـ/١٣١٠م وعفى أثره.

ومن أولاد الناصر أيضاً الأمير رمضان كان شاباً حسن المنظر، حاول بعض مماليك أبيه تقليده السلطنة، والتف حوله جماعة منهم وخرجوا به إلى قبة النصر فلم يخرج إليهم أمير كبير من الأمراء حتى يقوى أمره، وخرج إليه جنود الصالح إسماعيل، ولحقوا به وهو في طريقه إلى أخيه الناصر أحمد بالكرك فقبض عليه، ومات عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م وهي السنة التي قلد فيها الصالح إسماعيل السلطنة، ولم يصرح هل مات هذا الأمير بقضاء الله وقدره؟. أم دس عليه من أراح السلطان منه فلم ترد أية إشارات في المصادر عن مصيره.

والأمير الأمجد حسين بن الناصر محمد فهو آخر أبناء الناصر وفاة، وقد حاول المماليك الجراكسة إقامته سلطاناً، إلا أن السلطان حسن فطن إلى ذلك وحال دون حدوث ذلك الأمر، وقد رشح للسلطنة أكثر من مرة ولم يفلح أمره، وقلد ابنه الأشرف شعبان السلطنة، وتوفي في عام ٧٦٤هـ/١٣٦٢م.

أما أحفاد الناصر محمد فهم جملة كثيرة من الأحفاد نذكر منهم ما استطعنا الحصول على ترجماتهم من خلال المصادر، فقد ترك السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد عشرة أولاد ذكور وهم أحمد وقاسم وعلى وأسكندر وشعبان، وإسماعيل ويحي وموسى، ويوسف، ومحمد وست بنات. وكان الأمير شهاب الدين أحمد أسن أولاد الملك الناصر حسن وأكبر إخوته العشرة، أقام بقلعة الجبل، "كالمحبوس بها على عادة أولاد السلاطين" فكانت العادة إقامة أولاد سلاطين مصر وذرياتهم بالقلعة، ولا يتجاوز أحدهم باب القلعة، وقد عين للسلطنة مرة لكن لم يتم أمره، وتوفي بالحوش السلطاني بمجلسه بالقلعة عام ٧٨٨هـ/١٣٨٦م ودفن بمدرسة أبيه السلطان حسن.

ومن أولاد السلطان الناصر حسن الأمير إسماعيل ، كان مقيماً كذلك بقلعة الجبل وقلد إمرة في عهد ابن عمه الأشرف شعبان بن حسين واختص به، ثم تقدم عند الظاهر برقوق وصار من ندماء مجلسه، توفي عام ٧٩٩هـ/١٣٩٦م، وذكر أيضا من أبناء الناصر حسن الأمير يحي الذي توفي عام ٧٨٦هـ/١٣٨٤م ذكر وفاته المقريزي في خبر مقتضب، ولم نجد له ترجمة في الدرر ولا المنهل الصافي.

ومن أحفاد الناصر محمد أبناء الأمجد حسين، الأمير آنوك بن حسين وهو أخو الملك الاشرف شعبان وقد لقب هذا الأمير بسلطان الجزيرة لأن يلبغا الخاصكي عندما انقلب عليه مماليكه وهو على بر الجزيرة وانضمامهم إلى الأشرف شعبان، فعبر يلبغا إلى جزيرة أروى، واستقر بالجزيرة الوسطانية والأشرف شعبان ببولاق التكروري وعظم أمر الأشرف شعبان بعد انضمام مماليك يلبغا إليه، فأنزل يلبغا الأمير آنوك ابن الأمجد حسين من الدور السلطانية بالقلعة وسلطنة ولقبه بالملك المنصور وخلع الأشرف شعبان، وآل أمر يلبغا إلى القتل بعد القبض عليه، وعندما انتهى الأمر رسم الأشرف شعبان لأخيه آنوك بأن يقيم على حاله التي كان عليها أولا، ثم أنعم عليه بإمرة طبلخاناة، وبعد مقتل الأشرف شعبان أخذت منه الإمرة واستمر بطالا بقلعة الجبل، حتى توفي عام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م، وذكر أحد أولاد الأسياد لأبي المحاسن أنه كان حشما متواضعا، كريم النفس، إلا أنه كان يغضب من قولهم سلطان الجزيرة.

أما السلطان الأشرف شعبان فقد ترك من الأبناء ستة ذكور وهم المنصور علي والملك الصالح أمير حاجي- وهذان قلدا السلطنة بعد والدهما — وقاسم ومحمد وإسماعيل وأبوبكر، وأنجبت بعده خوند سمراء ولداً أسموه أحمد، وترك كذلك سبع بنات أما أولاده الأخرين فجاءت أخبارهم مقتضبة بالمصادر المملوكية فكانت عبارة عن إعلام بسنوات وفاتهم فقط، وكأنهم كانوا يعيشون محبوسين في القلعة بدون أي مشاركات إجتماعية، فالأمير أسماعيل ابن الأشرف شعبان ظل مقيما بقلعة الجبل حتى توفي عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م عن عمر يناهز خمسة وعشرين عاماً، والأمير قاسم بن الملك الأشرف، والذي ذكره الصيرفي بلقب سيدي قاسم فقد توفي في عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م ودفن بمدرسة جدته بالتبانة، والأمير أبو بكر بن الأشرف شعبان فقد توفي عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ولم يذكر المقريزي مكان دفنه.

وبعد فأبناء السلاطين من الأسياد، كانت كما ذكرنا سكنا هم بالقلعة حيث الدور السلطانية، ووصل عدد الأسياد من بني قلاوون في قلعة الجبل إلى ست مئة نفس أخذ الموت منهم أمراء كثيرين، وظل المتبقي منه على ما هم عليه، حتى أن أبناء السلاطين الجراكسة كانوا على نفس العادة، عندما يتوفى سلطان يظل أبناؤه في الدور السلطانية بالقلعة، حتى عهد الأشرف برسباي وفي عام ٨٣٦هـ/١٤٣٧م أصدر الأشرف مرسوماً يقضي بعدم سكنى أولاد الملوك (الأسياد) من ذرية الناصر محمد بن قلاوون قلعة الجبل والطلوع إليها والإقامة بها، فأخرجوا منها، وقد أضر هذا المرسوم بذرية الناصر محمد، " وصل لهم الذل الشنيع بعد العز الرفيع" وتفرقوا في أماكن القاهرة وأخذتهم الدهشة والعجب من العمائر والأسواق. وتهتك بعضهم في المتنزهات وافتقر كثير منهم، وفسد حالهم والبعض باع أرزاقه، وأخذ يدور في الأسواق راجلاً، وتعانى بعضهم الطرب والغناء، والبعض الآخر اشترى جواري يحسن أنواع الطرب وأخذ يتردد بهن على الناس، ولو أنهم ظلوا بالقلعة ما حدث لهم مثل هذه الأمور الشنيعة المستقبحة، وعلق أبو المحاسن على فعل الأشرف برسباي بهم ذلك "فكان كما يقول القائل".

"رام نفعا فضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقا"

واشترك عدد من المؤرخين مع أبي المحاسن في رأيه حيث ذكروا أن الجزاء من جنس العمل، لأن الناصر محمد فعل بأولاد الملوك من بني أيوب كذلك، وفعل الله بهم ذلك لأن أباهم الملك الكامل محمد الأيوبي فعل كذلك بأولاد الخلفاء الفاطميين فكما تدين تدان.

وعادة كان يلقى أبناء السلاطين (الأسياد) معاملة طيبة من السلاطين في القلعة طالما أن الأوضاع السياسية مستقرة، ولكن إذا كان هناك ما يعكر صفوها فربما يلقى هؤلاء الأمراء بعض التضييق عليهم مثلما حدث في عهد الأشرف شعبان بن حسين عندما أراد الخروج إلى الحج خشي ترك إخوته وأبناء عمومته بالقلعة فأمر بإرسالهم جميعا إلى الكرك وحبسهم هناك بنسائهم وأبنائهم، وكان الوقت شتاءً بارداً فتألم الناس من إخراجهم على هذه الصورة في حين أنه أبقى

أولاده بالقلعة وأمر نائب الغيبة وغيره من الأمراء أن يطلعوا في كل يوم ساعة إلى القلعة ويخرج الأسياد أولاد الأشرف شعبان وأكبرهم الأمير علي بن شعبان فيقوم الأمراء بتقبيل أيديهم ويجلسون ساعة ثم يعود كل إلى محله وبعدما خرج الأمراء مع الأشرف شعبان ، قالوا بعزله وتولية ابنه المنصور علي ، عاد الاسياد من ذرية الناصر محمد مرة أخرى إلى قلعة الجبل ، وكان الأشرف أخرج منهم الملك المنصور محمد بن حاجي بن الناصر محمد ، وأولاد الناصر حسن وهم أحمد وقاسم وعلي وإسكندر وموسى وإسماعيل ويوسف ويحي وشعبان ومحمد ، وأولاد حسين بن الناصر محمد وهم آنوك وأحمد وإبراهيم وجانبك ومحمد بن الصالح صالح بن الناصر محمد ، وقاسم ابن أمير علي بن يوسف ، عادوا بحريمهم وأولادهم إلى قلعة الجبل ليلا ونزلوا بدورهم كما كانوا فيها من قبل.

وفي العصر المملوكي الثاني كان أبناء السلطان الظاهر برقوق هم أول الأسياد في ذلك العصر ، فكان له خمسة أبناء توفي اثنان منهم في حياته وهما ، الأمير ناصر الدين إبراهيم ولد وأبوه مازال في الأتابكية عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م ، وأغدق عليه السلطان -الذي لم يكن له من الأمر شئ – العطايا فأعطاه إقطاع الأمير بركة وهو ابن شهر واحد ، وزاد فأعطاه إقطاعات أخرى عرفت فيما بعد باسم ديوان المفرد ، مرض ناصر الدين إبراهيم بداء أصاب قدميه فأعيا الأطباء ومات عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م وهو أكبر أبناء السلطان ، ودفن في التربة الظاهرية ببين القصرين ، وحزن عليه أبوه حزناً شديداً ، والأمير شعبان بن الظاهر توفي وهو طفل صغير عام ٧٩٩هـ/١٣٩٦م ، وتوفي الظاهر برقوق وترك ثلاثة من الأولاد أكبرهم الناصر فرج الذي قلد السلطة من بعده ، والمنصور عبد العزيز وأخاهم الثالث إبراهيم والأخيرين ماتا في عهد الناصر فرج بالطريقة التي ذكرنا من قبل.

أنجب السلطان الأشرف برسباي ثلاثة أولاد ، توفي واحد منهم في حياته وهو الأمير ناصر الدين محمد بن برسباي ، وقد ترقى في حياة والده إلى أمير مئة ومقدم ألف وكان القاضي جلال الدين محمد بن زهر يعمل في توقيعه وكان للأمير ناصر الدين رواجاً اجتماعياً ، فقد كان المرشح للسلطنة بعد أبيه وكثيراً ما خرج للصيد ، وكسر الخليج وفتح السد ، ومارس كثير من المهام التي تناط بعمل ابن السلطان الأكبر وتعتبر من اختصاصه ، توفي الأمير ناصر الدين محمد في عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م ودفن بمدرسة أبيه الأشرفية بالعنبرين بالقاهرة.

أما الابن الثاني للظاهر جقمق فهو الأمير أحمد توفي عام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م عن سبع سنوات وأمّه خوند شاه زاده بنت صاحب بلاد الروم ، وكذلك توفي للظاهر ثلاثة ذكور صغار السن غير من سبقت الإشارة إليهما. وكان للأشرف إينال العلائي ولد آخر غير المؤيد أحمد ، وهو الأمير ناصر الدين محمد ، وقد حمل مع المؤيد أحمد إلى سجن الأسكندرية ، وكان الأمير ناصر الدين محمد في حياة أبيه أمير مئة ومقدم ألف ، وصف بالعقل والحشمة والرئاسة ، ظل بسجن الأسكندرية حتى توفي عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م ونقل جثمانه إلى القاهرة ودفن على أبيه في مقبرته. هذا وقد أشارت بعض المصادر إلى ابن للسلطان الظاهر خشقدم الرومي لقبه ابن إياس بسيدي منصور وكان الأمير منصور يصعد إلى القلعة في عهد الأشرف إينال لتهنئة السلطان بالعيد ، وكان السلطان يقابله ببشاشة ويجلسه معه على الكرسي ، وبلغ عمره في عهد الأشرف إينال دون العشر سنوات.

أما السلطان الأشرف قايتباي فقد توفي له في حياته ولد وهو الأمير أحمد وهو أول أولاده ، وكانت والدته بنت العلاء علي بن خاص بك ، وأطلق عليها خوند الخاصبكية ، توفي وله من العمر أربع سنوات. وآخر سلاطين المماليك السلطان الأشرف قانصوه الغوري كان له ثلاثة أولاد ذكور توفي في حياته ابنه المقر الناصري ناصر الدين محمد ولاه والده شادية الشراب خاناة ، "كان شاباً جميل الصورة مليح الشكل بهي المنظر" توفي وله من العمر ثلاث عشرة سنة وصلى عليه الأمراء والسلطان الجمعة وحمل إلى مدرسة أبيه فدفن داخل القبة ، وكانت له جنازة حافلة وترك الأشرف قانصوه الغوري ولداً واحداً وأطلق عليه محمد أيضا وظل محمد في مصر بعد وفاة الأشرف في موقعة مرج دابق إلى أن استولى السلطان سليم على مصر فأخذه معه إلى إسطنبول في بلاد الروم.

الخوندات بنات السلاطين

رأينا أن أولاد السلاطين (الأسياد) فقد توافرت نسبياً أخبارهم في المصادر المملوكية سواء في العصر المملوكي الأول أو الثاني ، أما الخوندات بنات السلاطين فقد أجملت أخبارهم ، ولم تأت أخبارهم في المصادر إلا بعبارات مختصرة صغيرة وخاصة في العصر المملوكي الأول ، وهذه الأخبار تأتي في سياق الحديث عن سلطان ومن تركهم من الأبناء ،فيعدد الأبناء الذكور وتجمل أخبار الإناث كقولهم وترك "سبع بنات" أو "ست بنات" ، أو لربما جاءت عنهم نصوص أخرى على سبيل التعريف بترجمة سلطان ما وذلك مثل الخبر الذي ذكر عن السلطان محمد بن قلاوون في سياق ترجمته فذكر المقريزي أنه "جهز إحدى عشرة إبنة له بالجهاز العظيم ، فكان أقلهن جهازا بثمانمائة ألف دينار" وقوله أيضاً "وزوجهن من مماليكه مثل الأمير قوصون والأمير بشتاك والأمير الطنبغا الماردين ، والأمير طغاي تمر ، والأمير عمر بن النائب وغيرهم" وربما جاء ذكر أخبارهم من قبيل الأعلام بوفاة أحد الخوندات من بنات السلاطين ، وجاءت مثل هذه الأخبار بوفرة في المصادر المملوكية غير أنها كانت في العصر المملوكي الثاني أكثر منها في العصر الأول.

ومن نافلة القول أن نذكر أنه ربما كان سبب عدم التصريح بأخبار الخوندات بنات السلاطين راجعا لما كانت تحتله المرأة من مكانة عزيزة فلا يصرح باسمها ، حتى عندما كان يذكر عن إحداهن شئ يقال في وصفهن السيدة "المصونة المحجبة ذات المقام الرفيع" إلى آخره من الأوصاف التي تدلنا على مدى قدرهن واحترامهن في المجتمع المملوكي ، وهذا أيضا يدل على أن أخبار المرأة لم تكن مادة للتداول إلا في القليل النادر أو إذا وجد خبر لابد من ذكره ولا يمكن تجاهله مثل الحوادث المؤثرة في سير الأحداث السياسية كقيام خوند بركة بتربية الأشرف شعبان وإعداده للسلطنة ، وأن يكون لإحداهن عمل إجتماعي بارز فيقوم المؤرخون بذكر أخبارهن دون التردد في ذلك والأمثلة على ذلك كثيرة.

هذا وقد ترك الأشرف خليل بن قلاوون ابنتين ، ولم يترك ولداً ذكراً ولم نعثر على أية تفاصيل عن هاتين البنتين أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فكان له من البنات إحدى عشرة إبنة ، توفي ومنهن سبع بنات على قيد الحياة وذكر المقريزي منهن دون التصريح بأسمائهن خوند توفيت عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م وهي زوجة الأمير طاز وقال أنها "تركت مالاً عظيماً ، أبيع موجودها بباب القلة من القلعة بخمسمائة ألف درهم" ، وتوفيت للسلطان الناصر ابنة تعرف بخوند

التنكزية ابنته من زوجته ابنة الأمير تنكز نائب الشام عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م وكانت متزوجة من الأمير تنكز بغا هذا وقد صرح ابن حجر العسقلاني ومعه المقريزي هذه المرة باسم خوند عائشة ابنة الناصر محمد والتي تعرف بخوند القردمية، والتي كان يضرب المثل "بكثرة أموالها فلم تزل تسعى في إتلافها إلى أن ماتت على مخدة من ليف" عام ٧٩٨هـ/١٣٩٥م ولم نعثر على أية معلومات أخرى تفيدنا في التعرف على بقية بنات الناصر محمد بن قلاوون.

ومن حفيدات السلطان الناصر محمد ابن قلاوون بنات الأمير الأمجد حسين بن الناصر محمد خوند سارة زوجة الأمير منكلي بغا الشمسي الأتابك، وكذلك خوند شقراء ابنة الأمجد حسين وأخت الأشرف شعبان ماتت عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م ودفنت بمدرسة أم السلطان خوند بركة بالتبانة خارج القاهرة، أما الأشرف شعبان فقد ذكرت المصادر أنه ترك من البنات سبع واستطعنا العصور على اثنتين منهن خوند فاطمة ابنة الأشرف شعبان زوج الأمير منكلي بغا، وخوند خديجة "وهي آخر أولاد الأشرف من النساء وفاة وكانت توصف بعقل ورياسة".

ومن الخوندات بنات السلاطين في العصر المملوكي الثاني، خوند سارة ابنة الظاهر برقوق وقد تزوج بها الأمير نوروز الحافظي وماتت في عام ٨١٦هـ/١٤١٣م بطريق دمشق وخوند عائشة ابنة الظاهر برقوق والتي توفيت عام ٨١٩هـ/١٤١٦م، وخوند زينب وهي التي وصفت بالجمال تزوجت بعد وفاة أبيها، وكان من أزواجها المؤيد شيخ المحمودي فكانت ابنة سلطان وزوجة سلطان وأخت سلطان، وتوفي المؤيد وهي في عصمته، ثم تزوجت بعده وماتت في عام ٨٢٦هـ/١٤٢٢م ودفنت بمقبرة أبيها وهي آخر أولاد الظاهر لصلبه وفاة وكانت "أرأس أخواتها".

هذا وقد ذكر السخاوي ثلاث بنات للناصر فرج بن برقوق إحداهن تدعى آسية ماتت بلا زواج والثانية خوند ستيته زوجة الأمير الصارمي إبراهيم ابن المؤيد شيخ توفيت عام ٨١٩هـ/١٤١٦م ودفنت بمقبرة أبيها بقبة النصر، والثالثة زوجة قرقماش حاجب الحجاب توفيت عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م ودفنت كذلك بمقبرة أبيها وقد عثرنا على ابنتين للسلطان الظاهر ططر الأولى خوند ست الملوك زوجة الأتابكي يشبك السودوني وكانت من خيار الخوندات وأمها خوند ابنة سودون الفقيه ووصفها أبو المحاسن "أنها من بيت دين وعفة" والثانية خوند فاطمة زوج الأشرف برسباي وكانت غاية في البذل والكرم عظمت في دولة زوجها الأشرف وكانت تماثل خوند زينب ابنة الظاهر برقوق في كونها ابنة سلطان وأخت سلطان وزوجة سلطان، وعندما مات الأشرف نزلت من القلعة وسكنت بباب سر المارستان وكان لها ثروة كبيرة من جواهر وقماش فبذّرت وتصرفت تصرفاً سيئاً، وكان لها متحصل من جوامك ورزق ولكنها ماتت وهي في فاقة، وقد جاوزت الستين عاما وتركت عليها جملة ديون وتوفيت في عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، ودفنت على والدها عند ضريح الإمام الليث.

وخلال البحث في مصادر التاريخ المملوكي وجدنا ابنتين للأشرف إينال العلائي هما خوند بدرية ابنة الأشرف زوجة الأمير بردبك وقد توفيت عام ٨٧٩هـ/١٤٧٤م وأختها خوند فاطمة هي أصغر منها وقد تزوج بها الأمير يونس الدوادار الكبير أما الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال فذكرت المصادر أن له ثلاث بنات الأولى توفيت ٨٧٩هـ/١٤٧٤م وكانت مقيمة عند أبيها في حبس الأسكندرية وتوفيت قبل الزواج، والثانية لم يذكر أيضا اسمها وتوفيت عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، أما الثالثة خوند فاطمة زوجة الأمير الكبير يشبك من مهدي الدوادار، قاست كثيراً من المرض حتى توفيت عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م ودفنت بمقبرة زوجها.

المصاهرات وأهميتها لأولاد الناس

من المعروف أن المماليك عاشوا طبقة أرستقراطية يحكمون البلاد ويتمتعون بالجزء الأكبر من خيراتها دون أن يحاولوا الإمتزاج بأهلها، فلم يتزوجوا منهم واختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللاتي جلبهن التجار، ولا شك أن عدم التقارب من الأهلين بهذه الطريقة أوجد فجوة عميقة بين الحاكم والمحكوم، بين المماليك الطبقة الحاكمة من المماليك، والمصريين في المجتمع المصري، ومن شدة محافظة السلاطين على هذا الوضع رسموا للقضاة والشهود ألا يعقدوا قران مملوك من مماليك السلطان إلا بإذنه، وشددوا العقوبة والتحذير للناس من انتقال مملوك من المماليك عن طريق البيع إلى كاتب أو عامي، غير أن هذا النظام حدث به بعض الخلل وخاصة مع طول الفترة التي عاش فيها المماليك بين الناس بعدما سمح لهم السلطان برقوق بالسكنى بالقاهرة ونزولهم من الطباق "ونكحوا نساء المدينة".

ومن هنا جاءت أهمية المصاهرة بالنسبة لسلاطين المماليك والأمراء على حد سواء، فنجد السلاطين يحرصون على تزويج بناتهم من أكابر الأمراء في دولهم ويختارون لأبنائهم زوجات من بنات أمراء المماليك، فقام السلطان الناصر محمد ابن قلاوون بتزويج بناته من مماليكه وأبنائهم، وتعدى الأمر حتى لسراريه وجواريه فقد حرص على زواجهن من أمرائه وأخصائه، وأغلب هذه المصاهرات التي كانت تقوم بين الأمراء وبنات السلاطين أو العكس كانت ناتجة عن أسباب سياسية فالسلطان يريد أن يقوي بمصاهرة هؤلاء الأمراء، أو أنه يخشى غائلة بعضهم فتكون المصاهرة سبباً في عدم خروجه على السلطان، وجاءت بعض النصوص تؤكد على مثل هذا المعنى، عندما عقد السلطان الناصر فرج للأمير سودون الحمزاوي على أخته خوند زينب بنت الظاهر برقوق وعمرها ثماني سنوات، فأصبح أخوات السلطان الثلاث "كل واحدة مع أمير من أمرائه، فخوند سارة زوجة الأمير نوروز الحافظي وخوند بيرم زوجة الأمير إينال باي بن قجماس وخوند زينب وهي أصغرهن على سودون الحمزاوي" فبالرغم من صغر سن العروس إلا أن المصلحة اقتضت ذلك، وحدث أمر مشابه مع ابنة الناصر فرج نفسه وهي خوند ستيته زوج الأمير بكتمر جلق تزوجها الأمير ومات عنها فتزوجت بعده الأمير صارم الدين إبراهيم ابن المؤيد شيخ "ودخل بها فوجدها بكراً" وهذا دلالة على أن الزيجة الأولى لهذه الخوند لم تكن إلا من قبيل الزيجات السياسية بين السلاطين وأمرائهم، أما السلطان المؤيد شيخ فقد زوج ابنة له عمرها يناهز التسع سنوات فقط للأمير "طوغان الدوادار لمصلحة رأها مولانا المؤيد"، والنص هنا غني عن التعليق.

غير أننا سنجد أن الأمور اختلفت نسبياً مع أولاد الناس فسنرى خلال السطور القادمة كيف أن البعض منهم صاهر أفراد الشعب المصري ويظهر ذلك في أكثر من مثل سوف نسوقه في هذا المضمار.

مصاهرات السلاطين للأمراء المماليك

أخذت مصاهرات السلاطين للأمراء المماليك مظهراً إجتماعياً خاصاً بطبقة المماليك، فقد صاهر السلاطين الأمراء على بناتهم وأصبحن خوندات زوجات سلاطين ومنهن من حظيت عند السلاطين وأصبحت خوند قاعة وكانت هذه الظاهرة ممتدة منذ أوائل العصر المملوكي وحتى نهايته بعهديه التركي والجركسي.

ففي بدايات الدولة المملوكية وجدنا السلطان الظاهر بيبرس يحاول أن يعضد سلطان ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان بمصاهرته للأمير سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي على ابنته غازيه خاتون وعُقد النكاح بالأيوان من قلعة الجبل على صداق بلغ خمسة آلاف دينار المعجل منه ألفا دينار، وهكذا حاول بيبرس أن يحفظ العرش من بعده لإبنه الملك السعيد بركة بمصاهرته للأمير سيف الدين قلاوون، وذلك لأنه ظن أن قلاوون لن يطمع فيما بيد زوج ابنته، ولكننا وجدنا أن أطماع أمراء المماليك غلبت على ذلك الأمر وكانت أقوى من روابط المصاهرة حتى أقوى من روابط الخشداشية والتي تعتبر أقوى رابطة بين الأمراء المماليك، وآل الأمر إلى انتزاع قلاوون السلطنة من أبناء الظاهر بيبرس.

هذا وقد صاهر السلطان الكامل شعبان الأمير طقزدمر كذلك، ولم توضح لنا المصادر هل هي خوند زوجة السلطان الصالح إسماعيل أم أن هذه ابنة غيرها للأمير طقزدمر هذا ومن المصاهرات الغريبة التي حدثت في العصر المملوكي الأول وفي أحداث فتنة منطاش ويلبغا الناصري على السلطان برقوق، وعند تواجد السلطان المنصور أمير حاج بن شعبان بالريدانية في أثناء محاولاتهم رد السلطان برقوق بجيشه القادم من بلاد الشام، طلب السلطان قضاة القضاة الأربع بالريدانية، فجلسوا طوال النهار إلى أن قابلهم السلطان، وطلب منهم عقد عقده على خوند ابنة الأمير أحمد بن السلطان حسن، ولا نجد سبباً نعزي إليه هذه الزيجة الغريبة التي تقع والاحوال مضطربة وتكاد الأرض أن تميد من تحت أقدام السلطان وينتزع منه العرش، فما كان منه إلا الإقدام على الزواج من ابنة ابن عمه الأمير أحمد بن الناصر حسن.

وقد تزوج السلطان الظاهر برقوق من الخوندات بنات الأمراء المماليك اثنتين خوند هاجر ابنة الأمير منكلي بغا الشمسي وهي حفيدة الأشرف شعبان لأمها، وكانت تعرف باسم خوند الكعكيين لسكناها بخط الكعكيين بالقاهرة، وكانت من "أعظم نساء العصر رئاسة وعراقة" في بنات الناس وخوندات السلاطين عقد السلطان عليها عام ٧٨٨هـ/١٣٨٦م وكانت من خواص نسائه، وهي آخر نسائه موتاً ولم ينجب السلطان منها أولادا توفيت عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م أما المصاهرة الثانية للسلطان الظاهر برقوق للأمراء المماليك على بناتهن مصاهرته للأمير منجك على ابنته خوند فاطمة، وقد جهز لها جهازاً حافلاً حمله ثلاث مئة حمّال ونرى من خلال هذه النصوص أن السلطان الظاهر صاهر اثنين من أهم أمراء الدولة المملوكية في ذلك الوقت.

هذا ونجد السلطان المؤيد شيخ قد صاهر بيت السلطان برقوق عندما تزوج بابنة الظاهر خوند زينب وظلت بعصمته إلى أن مات عنها، وبالرغم من أن السلطان المؤيد شيخ هو الذي استقل بالحكم من أخيها السلطان الناصر فرج، وتزوج كذلك المؤيد شيخ ابنة الأمير تنم الحسني وكان آنذاك نائبا للشام.

ونرى أن رعاية السلطان الأشرف برسباي للصالح محمد بن ططر ليس فقط نابعة من كونه ابن السلطان الظاهر ططر وإنما كان هناك سبب آخر وهو مصاهرته للصالح محمد على أخته خوند فاطمة ابنة السلطان الظاهر ططر، وهي من "الخوندات المعظمات في دولة الأشرف" وهنا نجد أن السلطان الاشرف رسم بعد موت الصالح محمد لأبناء السلاطين (الأسياد) الذين كانوا بالقلعة داخل دور الحريم بأن ينزلوا إلى القاهرة ويسكنوا بها.

ومن اللافت للنظر أن بيت الأمير علاء الدين على بن خاص بك من البيوتات التي زاعت شهرتها خلال العصر المملوكي الثاني فقد صاهر هذا البيت أكثر من سلطان أولهم السلطان الاشرف قايتباي فقد تزوج بخوند فاطمة ابنة العلاء علي وقد سميت بخوند الخاصبكية، وظلت صاحبة القاعة نحوا من ثلاثين سنة "وهي من مشاهير الخوندات"، ولم يتزوج الأشرف قايتباي غيرها طوال حياته، وتزوجت بعد الأشرف قايتباي بالسلطان العادل طومان باي فعادت إلى القلعة في موكب مهيب من الأمراء ورؤوس النوب والحجاب والخاصكية وغيرهم، ويقال أن هذه الخوند تزوجت سراً وقبل العادل طومان باي بالأشرف قانصوه خمسمائة.

ومن الممكن في هذا المجال ذكر مصاهرة السلطان الظاهر قانصوه خمسمائة من ابنة الأمير أزبك من ططخ، وبالرغم من أن الظاهر قانصوه لم يمكث في السلطنة وبعض المؤرخين لم يعتبره من سلاطين الدولة، ولم يضعوه على قائمة السلاطين الذين صاهروا كبار أمراء الدولة المملوكية.

مصاهرات الأمراء للسلاطين

انتشرت بكثرة مصاهرة الأمراء المماليك لسلاطين الدولة المملوكية، وربما أن الأسباب نفسها التي ذكرت كانت تزكي مثل هذه المصاهرات، وربما فرضت هذه الزيجات فرضاً، أو تكون برغبة كاملة من قبل السلاطين حيث يختارون لبناتهم أزواج على قدر من الأهمية في الدولة، وخاصة إذا ما عرفوا قيمة هذا الأمير المملوكي وقوة شوكته.

ويأتي السلطان الناصر محمد بن قلاوون في صدارة هؤلاء السلاطين الذين أرادوا لبناتهم زيجات على قدر من الأهمية، فزوجهم من أهم أمراء دولته، وبالرغم من أن السلطان الناصر محمد كان مرهوب الجانب من كل المماليك، وخاصة من قبل الأمراء المقربين منه، إلا أننا نراه يقوم بتزويج أهم هؤلاء الأمراء من بناته فكان "أن جهز إحدى عشرة ابنة له وزوجهن من مماليكه"، فصاهر من الأمراء المماليك وممن ذكرتهم المصادر الأمير قوصون الساقي والأمير بشتاك والأمير الطنبغا الماردني والأمير طغاي تمر والأمير عمر بن أرغون النائب- وهو من أولاد الناس- والأمير أقسنقر الناصري أمير شكار، والأمير ظاز والأمير سيف الدين تنكز بغا الماردني أمير مجلس. وغيرهم ممن لم نحصل على أخبارهم، ولعل هؤلاء الأمراء زوجات بناته كانوا من خواصه وأهم المقربين إليه ومن أكثرهم أهمية الأمير قوصون الساقي والأمير بشتاك، وقد نعم هؤلاء المماليك بقربهم من السلطان الناصر وعاشوا في رغد وسعادة من هذه المصاهرات وقربهم من السلطان.

وفي عهد أحفاد السلطان الناصر محمد صاهر سلاطين الدولة المملوكية بعض أمرائها فقام السلطان الأشرف شعبان بمصاهرة الأمير منكلي بغا الشمسي نائب حلب على أخته خوند سارة بنت حسين، وبعد زواجه أنعم عليه السلطان الأشرف بتقدمة ألف وجعله أتابك

العساكر وصاهر كذلك كل من الأمير بشتاك العمري رأس نوبة النوب ، والأمير قاسم البشتكي على ابنته خوند خديجة والتي كانت آخر أولاد الأشرف شعبان وفاة ، ومن أزواج بناته أيضاً الأمير يلبغا الأحمدي الأستادار هذا وقد زوج السلطان المنصور أمير حاج أخته خوند ابنة الأشرف شعبان للأمير الكبير منطاش وذلك أثناء أحداث فتنة منطاش في عهد الظاهر برقوق وهذه المصاهرة وضحت فيها تماما ما للعلاقات السياسية من دور حتى في أثناء الفتن تتم المصاهرات لتقوي الروابط بين السلطان الضعيف والأمير الكبير القوي المتحكم في زمام الأمور ، ولم تنته الأمور بالنسبة للملك المنصور على هذا النحو فبعد أن عاد برقوق إلى السلطنة استمر المنصور محبوساً في القلعة وكان السلطان برقوق متصرفا في بعض أموره فزوج الأمير تغري بردي اليشبغاوي من ابنته خوند فاطمة وقد عاشت هذه الخوند إلى أن توفيت وهي في عصمة الأمير تغرى بردي عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م.

وفي عصر دولة المماليك الجراكسة صاهر الأمراء المماليك السلطان الظاهر برقوق على بناته فتزوج خوند سارة الأمير نوروز الحافظي ، وبعد وفاته تزوجت من الأمير مقبل الرومي أما خوند بيرم فبنى بها الأمير إينال باي بن قجماس ، أما خوند زينب فقد تزوجها أولاً الأمير سودون الحمزاوي نائب الشام وكان عمرها نحو الثماني سنوات ومات عنها فبنى عليها المؤيد شيخ المحمودي ، وبعد وفاته تزوجها الأمير قجق العيساوي أمير سلاح ، فنرى مصاهرة السلطان - في حياته وحتى بعد وفاته- لأهم أمراء الدولة ، أما السلطان الناصر فرج ابن برقوق فقد أشرنا من قبل أنه ترك اربع خوندات تزوجن من أمراء الدولة وهم الأتابكي جرباش كرت المحمدي ، والأمير بكتمر جلق ، والأمير قرقماش الشعباني حاجب الحجاب ، والأمير الصارمي إبراهيم ابن المؤيد شيخ.

وقد صاهر المؤيد شيخ جملة من كبار الأمراء على الخوندات بناته ، وهم الأمير قرقماش الشعباني ، والأمير طوغان الدوادار والأمير الكبير الطُنَبغا القُرْمَشي ، والأمير يشبك الفقيه وقد اختصّ السلطان الظاهر ططر بالأمير الكبير يشبك السودوني الأتابك "اختصاصا عظيما" فولاه الأمير آخورية الكبرى وزوجه من ابنته وكانت هي وأمها ابنة سودون الفقيه من خيار الخوندات ديناً وعفة هذا وكان ممن صاهر السلطان الظاهر جقمق من الأمراء الأمير الكبير أزبك من ططخ الأتابكي صاحب الأزبكية ،وكانت مصاهرته للسلطان أولا على ابنته خديجة والتي أنجب منها ولده الناصري محمد ، ثم تزوج بعد وفاتها أختها فاطمة بعد وفاة زوجها الأمير جانبك الظريف ، وكان زواجه من خوند فاطمة بعد وفاة الظاهر جقمق أما الملك المنصور عثمان فصاهره كذلك عدد من الأمراء المماليك على بناته وهم الأمراء أزدمر الطويل الأينالي على ابنته خديجة وقد تأيمت بعده ، ولم تتزوج ، والأمير تمراز الشمسي رأس نوبة النوب ، والأمير طوغان باي الدوادار الثاني.

ومن خلال هذا العرض الذي بدأناه بمصاهرة السلاطين على الخوندات بنات الأمراء الكبار في الدولة المملوكية ثم انتهينا به إلى مصاهرة الأمراء المماليك للسلاطين على الخوندات بنات السلاطين تدرك مدي أهمية المصاهرة في الحياة الإجتماعية التي عاشها هؤلاء المماليك وكونوا لنا منها فئة أولاد الناس التي كانت نتاج هذه الزيجات والمصاهرات ، وأيضا أهم العوامل التي ساهمت في تشكيل هذه الفئة داخل طبقة المماليك مصاهرات الأمراء المماليك بينهم وبين بعضهم وهذا الأمر حدث بصورة نستوضحها في السطور التالية.

مصاهرات أولاد الناس لأفراد المجتمع (مماليك-أعيان)

تعددت مصاهرات أولاد الناس بين الأمراء أولاد السلاطين وبنات الأمراء المماليك والعكس وبين أولاد الناس من أبناء الأمراء بعضهم البعض ، وبالطبع لن نستطيع حصر كل فئة أولاد الناس الذين تصاهروا مع بعضهم البعض طوال فترة حكم دولة المماليك ولكن يمكن ضرب أمثلة على مثل هذه الزيجات الكثيرة والتي ذكرنا أنها في أغلبها كانت تتم بين أفراد نفس الطبقة أي بين الأمراء المماليك وأبنائهم ، وعلى الرغم من ذلك فقد وجدنا بعض المصاهرات داخل فئة أولاد الناس مع أفراد من طبقة أخرى غير طبقة المماليك نحاول إبراز هذه الأمثلة من خلال عرض لأهم هذه الزيجات والتي وجدناها بين سطور المصادر المملوكية المتعددة ، ومن المعروف أن هذه المصادر تبخل علينا كثيرا بالمعلومات الإجتماعية والتي تخص أفراد المجتمع سواء من طبقة المماليك أو بقية طبقات المجتمع المصري.

ومن الأمثلة على أهم المصاهرات في عصر دولة المماليك التي تمت بين أبناء السلاطين الذين لم يتولوا السلطنة وبين الخوندات بنات الأمراء ما حدث في عهد السلطان الناصر محمد ومصاهرته لأمراء الدولة ، بتزويج أولاده منهم وهؤلاء الأولاد لم يقلدوا السلطنة من بعد السلطان الناصر ، فقد زوّج ابنه الأمير إبراهيم من ابنة الأمير جنكلي بن البابا ، وزوج الأمير آنوك — الإبن المفضل لديه — من ابنة الأمير سيف الدين بكتمر الساقي.

أما الأمراء المماليك فكانوا يصاهرون بعضهم البعض فيتزوج الأمراء من بنات الأمراء وأولاد الناس يتزاوجون من بنات الناس ، ومن الأمثلة على هذه المصاهرات: مصاهرة الأمير ملجك ابن أخت الأمير قوصون الساقي على ابنة الأمير تنكز نائب الشام ، وقد حملت إليه من دمشق ، ومصاهرة الأمير أحمد بن بكتمر الساقي أيضا للأمير سيف الدين تنكز نائب الشام.

ومن البيوتات المملوكية الكبيرة والتي امتدت مصاهراتها على الجانبين سواء المصاهرة مع الأمراء المماليك أو مع طبقات أخرى غيرهم بيت الأمير تغري بردي اليشبغاوي نائب الشام في عهد الناصر فرج بن برقوق ، ووالد أبي المحاسن يوسف ، فقد صاهر من الأمراء المماليك إينال النوروزي أمير مجلس والذي قلد هذا المنصب عوضاً عن الأمير آقبغا التمرازي "وكلاهما صهري وزوج إحدى أخواتي" كما علق أبو المحاسن يوسف ، وقد أنجب آقبغا التمرازي ابنة تدعى سارة تزوج بها الأمير ناصر الدين محمد بن الظاهر جقمق ، وأصبح بذلك صهراً لأبي المحاسن على ابنة أخته ، وقال في ذلك أبو المحاسن "وكان بيني وبينه صحبة قديمة وحديثة ومحبة زائدة ، ثم صار بيننا أيام سلطنة والده صهارة فإنه تزوج بنت الأتابك أقبغا التمرازي وهي بنت كريمتي".

وعلى الجانب الآخر فقد امتدت مصاهرات الأمراء المماليك وأولادهم لطبقات الشعب الأخرى وربما أن هذه المصاهرات اقتصرت بعضها على أعيان طبقة العامة من العلماء والفقهاء ، فقد صاهرت أسرة الأمير تغري بردي من العلماء والفقهاء أكثر من أسرة ، ومنها مصاهرتهم لشيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البُلقيني قاضي القضاة الشافعي وقاضي الديار المصرية وعالمها ، فقد تزوج ابنه شيخ الإسلام جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن قاضي الشافعية ابنة الأمير تغري

بردي وذكر أبو المحاسن يوسف فضل جلال الدين عبد الرحمن عليه وبأنه تربى في كنفه وفي بيته فقال "وهو صهري زوج كريمتي والذي تولى تربيتي"، وكذلك صاهر قاضي القضاة الحنفي كمال الدين أبو حفص عمر بن العديم الأمير تغري بردي، فزوج ابنه القاضي ناصر الدين محمد بن عمر من ابنة تغري بردي، ولعل هذه الزيجة كانت سبب خير بالنسبة للقاضي ناصر الدين فقد تولى القضاء بعد وفاة والده كمال الدين ابن العديم، فأصبح قاضي قضاة الحنفية، كما ذكر أبو المحاسن "بسفارة الوالد، لكونه كان متزوجاً بإحدى أخواتي" ومن أصهار الأتابك تغري بردي من القضاة أيضاً قاضي القضاة المالكي حسام الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن حريز صاهره على ابنته ولكنه طلقها بعد ذلك ومن هنا نرى أن أسرة الأمير تغري بردي نائب الشام قد صاهرت قضاة القضاة الشافعية، والحنفية والحنبلية.

ومن القضاة كذلك الذين صاهروا الأمراء المماليك على بناتهن القاضي شرف الدين الأنصاري، فقد تزوج بخوند زينب ابنة جرباش قاشق وكانت قبله زوجة الظاهر جقمق، وقد لاقى من هذه الزيجة ضرر كبير فقد عز على بعض مماليك الظاهر أن زوجة سلطانهم وإستاذهم تتزوج بأحد أفراد الشعب حتى وإن كان من أعيان القضاة والعلماء وذو نسب شريف، فتعرض له البعض بالضرب المبرّح المؤلم "فانقطع في داره أياماً، ثم ركب وطلع القلعة، فأخلع عليه باستمراره في نظر الجيش على عادته".

وحدث العكس أيضا في هذه المصاهرات فقد صاهر الأمراء المماليك وأولادهم القضاة والأعيان وتزوج محمد بن عمر سبط الأمير عبد الله بن بكتمر –وهو خاتمة الذكور من ذرية الأمير الكبير بكتمر الحاجب –من أم الحسن ابنة التقي البلقيني. وصاهر محمد بن طوغان الحسني التاج البلقيني على ابنته حنه، وتزوج عليها كذلك ابنة أخت الشمس ابن المرخم، أما الأمير أحمد بن نوروز شاد الأغنام فقد صاهر كذلك أسرة البلقيني فتزوج زينب ابنة الجلال البلقيني وقد صاهر الأمير إينال الأحمدي بنت أمين الدين الأقصرائي فتزوج أخته والتي أنجبت له فاطمة التي تزوج بها الأمير يشبك من مهدي، ومن اختصاصها بأسرة والدتها اشتهرت باسم ابنة الأقصرائي.

ومع طول العهد بالدولة المملوكية نرى حفيدات أولاد الناس أولاد الأمراء يتزوجن من فئة الأعيان، فقد تزوجت جان خاتون ابنة الركن عمر بن الناصري محمد بن الأمير جمال الدين بن بكتمر الحاجب من البرهان إبراهيم بن النور التلواني وأنجب منها ثلاثة أولاد وقد تزوجت كذلك عائشة ابنة الناصري محمد بن العطار من اثنين من الأمراء المماليك سودون الدقماقي وأنجبت له ناصر الدين محمد بن سودون، والأمير طيبغا البدري وأنجبت منه ابنتها فاطمة والتي تزوجت من عبد العظيم بن درهم ونصف، وبعد وفاته تزوجت من الشريف الأكفاني، وقد كان للناصري محمد بن العطار ابنة أخرى وهي زوجة كمال الدين ابن البارزي ناظر الجيش.

وعلى الجانب الآخر صاهر الخلفاء الأمراء على بناتهن فأمّ الخليفة المتوكل على الله بن المعتضد بالله العباسي وهي حاج ملك بنت مُقبل ووالدها "شخص من المماليك السلطانية" وقد بويع المتوكل على الله بالخلافة بعد وفاة عمه جمال الدين يوسف بعهد منه عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م.

ومن الجدير بالذكر أن مؤرخي العصر المملوكي لم يمدونا بالمعلومات الكافية في الجوانب الاجتماعية حتى يتثنى لنا دراستها بعمق أكثر، غير أنه من الممكن أن نلحظ من بين السطور أن النساء في العصر المملوكي من أبناء الأمراء أو أحفادهم كان يطلق عليهن لقب خوند أما إذا تحدث المؤرخ عن زواج أمير مملوكي أو ابن ناس من طبقة الأعيان فيذكر اسم المرأة باسم الست إكراما لها، وقد رأينا خلال الصفحات الماضية أن من نفس الطبقة – العامة – خرجت أيضاً خوندات عندما تزوج الظاهر جقمق ببنت البارزي، فأصبحت خوند باعتبارها زوج السلطان حتى وإن كانت من طبقة =كما ظن مماليك ذلك العصر أدنى من طبقتهم إلا أنها شَرُفت بزواج السلطان.

مظاهر الحياة الاجتماعية لأولاد الناس

زخرت الحياة الاجتماعية في مصر خلال عصر سلاطين المماليك بكثير من المظاهر التي شكلت قوام الحياة الاجتماعية لأولاد الناس بالمجتمع المصري المملوكي فتعددت هذه المظاهر بين مظاهر احتفالات أو مهارات كان يشارك فيها أولاد الناس كلعب الكرة ورمي البندق والنشاب، أو خروجهم لتخليق المقياس وكسر الخليج عند وفاء النيل، صور من الحياة الاجتماعية المصرية المملوكية شارك فيها أولاد الناس بإسهامات بعضها إيجابيا وبعضها الآخر سلبيا ولكن تواجدهم في هذه الحياة أكسب حياتهم الاجتماعية صورة واضحة نسبياً بجانب الفئات الأخرى من طبقات المجتمع المصري، نحاول من خلال هذه النقاط إماطة اللثام عن تلك الحياة الاجتماعية التي عاشها أولاد الناس بشكل أو بآخر.

وفاء النيل وكسر الخليج وتخليق المقياس

قال الصّفدي:

لِمَ لا أهيمُ بمصر وأرتضيها وأَعشَقْ
وما تَرى العِيَن أحلى مِنْ مَائِها إنْ تَخَلّقْ

وفاء النيل عيد مصري قديم قدم التاريخ، وهو أول احتفال حرص المصريون بكافة فئاتهم على الاحتفاء والاحتفال به، والنيل في حياة المصريين قيمة كبيرة جليلة القدر ونعرف مدى ارتباط المصريين القدماء بهذا النهر العظيم وصل هذا إلى حد تأليهه واطلاقهم اسم حابي عليه، وقد أدرك جميع من زار مصر أو من هو من أهلها أن الله عز وجل حبى مصر بهذا النهر العظيم ليرجع له الفضل في نشأة الحضارة وازدهارها واستمرارها وقد نشأ المجتمع وتطور عبر حقب التاريخ المختلفة وهو مرتبط ارتباطا وثيقاً بعوامل البيئة الجغرافية التي قوامها نهر النيل.

فالنيل بفيضه وغيضه هو المؤثر الفعال في حياة البلاد الإقتصادية، فإما يجلب الخصب والنماء أو يجلب المجاعة والأوبئة والطواعين، ودائما ما يكون أهل مصر شريفهم ووضيعهم في انتظار وفاء النيل، فإذا ما وفّى النيل تكون البشارة بذلك وتقام الإحتفالات والأفراح في كل بيت مصري، وتبدأ الاحتفالات الضخمة التي يقيمها المصريون فرحاً بوفاء النيل، وقد حرص المصريون على مراقبة زيادة النيل وارتفاعه كل يوم ويهتمون حتى بزيادته أصبع أو إصبعين وينادى بذلك في شوارع القاهرة.

وقد قام العديد من أبناء السلاطين (الأسياد) بفتح السد وتخليق المقياس منهم الأمير ناصر الدين محمد بن السلطان الأشرف برسباي "فصار ينزل في وفاء النيل لتخليق المقياس وفتح السد على العادة بتجمل وبين يديه أكابر الأمراء والخاصكية" وأول نزول للناصري محمد

بن برسباي كان عام ٨٢٦هـ/١٤٢٢م ، واستمر على ذلك كل عام حتى توفي عام ٨٣٣هـ/١٤٧٨م وكان يتولى هذا الأمر قبله الأمير الكبير بيبغا المظفري وقام من بعده أخوه العزيز يوسف بأداء هذه المهمة ، فكان ينزل كذلك في تجمل زائد وفي صحبة جمع من كبار الأمراء الموظفين مثل شاد الشراب خانة والخزندار وغيرهم.

وقام الأسياد أبناء السلطان الظاهر جقمق بفتح السد أيضاً ، أولهم الأمير ناصر الدين محمد بن جقمق فكان ينزل من القلعة لفتح السد وتخليق المقياس إيذاناً بوفاء النيل ، وبعد وفاته قام مقامه أخوه المقام الفخري عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان يخرج أحياناً معهم الحاجب وكاتب السر وكبار الأمراء. ونزل أيضا المقر الشهابي أحمد بن إينال وكان يشغل منصب أتابكية العساكر على عهده والده الأشرف إينال العلائي إلى كسر الخليج ، وتخليق المقياس في سنوات متعددة ، وكان ينزل صحبته عدد من كبار الأمراء في الدولة. وعند عودة ابن السلطان إلى القلعة يخلع السلطان عليه "خلعة شريفة على العادة" ، ويخلع كذلك على والي الفسطاط ورئيس الحراقة السلطانية وصاحب المقياس وغيرهم خلع سنية.

هذا وقد تحدث أحيانا أمور لا يحمد عقباها أثناء الاحتفالات بكسر السد وتخليق المقياس ، ففي عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م كان ينزل المقر الناصري محمد بن الأشرف برسباي لكسر الخليج وصحبته الملك الصالح محمد بن ططر ، وحدث بسبب تكدس العامة لمشاهدة هذا الموكب ما لا خير فيه للمتفرجين ، وحُرِقت الخيام التي بجزيرة الروضة وهذا الأمر أضفى على الاحتفال وعلى الجو العام مسحة كآبة بسبب ما حدث من حريق "ولم يكن للوفاء بهجة مثل العادة".

وهكذا شارك أولاد الناس من الأسياد أولاد السلاطين في مظهر من المظاهر الاجتماعية التي كانت تعد من سمات وعادات الشعب المصري ، بل عددها البعض من الأعياد القومية في مصر خلال عصر سلاطين المماليك.

الألعاب والفروسية والتريض والنزهة

باعتبار أن سلطنة المماليك في أصلها قامت على أساس عسكري ناتج من اقتناء المماليك وتربيتهم تربية عسكرية على درجة عالية من الإتقان فكان لابد لهؤلاء المماليك من ممارسة كل فنون الفروسية والقتال ، وقد عُني سلاطين المماليك بألعاب الفروسية وفنونها وبرز كثير من الأمراء في هذا الشأن وبرعوا فيه ، وذلك لما في ألعاب الفروسية من تمرين النفس واكتساب الخيرات.

وأولاد الناس جزء لا يتجزأ من هؤلاء الأمراء فبالطبع سيمارسون هذه الرياضات والألعاب والفنون ، مثل آبائهم وخاصة أن الكثير منهم كانوا أمراء في الدولة المملوكية ، وقد برز العديد من أولاد الناس في هذا المجال خلال عصري دولة المماليك ، ففي العصر الأول برز أكثر من شخص من أولاد الناس برعوا في الفروسية ورمي النشاب منهم الأمير مجاهد الدين آنس بن كتبغا الذي كان "أوحد عصره" في الرمي فيقال أنه رمى على قوس زنة مئة وثمانين رطلاً والأمير جمال الدين عبد الله ابن الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب "كان رأساً في رمي النشاب والبندق ليس له نظير فيهما".

وفي العصر المملوكي الثاني برز أيضاً عدة أمراء من أولاد الناس شاركوا في الألعاب وفنون الفروسية والرمي بالنشاب والبندق منهم الأمير شهاب الدين أحمد بن أمير علي بن إينال اليوسفي ، والأمير سيف الدين علي باي بن طراباي العجمي ، ومن الأسياد الأمير ناصر الدين محمد بن الظاهر جقمق الذي برع في لعب الرمح والنشاب لولا ما عاناه من السمنة بعد ذلك حيث حددت حركته نسبياً أما الأمير شرف الدين يحي بن يشبك الفقيه فقد بلغ درجة عالية في ألعاب الفروسية بسائر أنواعها كالرمح والسيف والدبوس ، والنشاب وسوق الخيل ، وأقام عدة سنين يسوق المحمل مع باشات محمل الحج.

هذا وكان السلاطين يعرضون أولاد الناس ويأمرونهم بلعب الرمح بين يديهم لكي يقفوا على مهارتهم في هذه الألعاب ومن يؤدي منهم أداءً حسناً يرضى عنه السلطان ، ومن لا يتقن ألعاب الفروسية والرمح يقوم السلطان بتوبيخه وربما يحدث لكثير منهم غاية المشقة في هذا العرض. ومن الرياضات الشهيرة التي شغف بها سلاطين المماليك وأمراء الدولة وأولاد الناس لعبة الجوكان أو الكرة أو الأكره وقد رعى السلاطين هذه اللعبة رعاية كبيرة وأقاموا لها الميادين الخاصة لمزاولتها ، ووضعوا قوانين تنظمها.

وقد ذكرت لنا المصادر المملوكية أكثر من واحد من أولاد الناس برعوا في لعبة الجوكان (الكرة) مثل الأمير علاء الدين قط ليجا بن بلبان الجوكاندار ، وهو أحد أمراء الأربعين (طبلخاناة) "وكان فارسا بطلا خفيف الحركات ويذكر عنه أنه ساق فرسه فأخذ نصف سفرجله من غصنها وبقي نصفها الآخر مكانه ، وكان في لعب الكرة غاية" وكذلك الأمير خليل بن أيدغدي الحاجب كان "أستاذ في لعب الكرة" ، أما الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير سيف الدين بكتمر الجوكاندار فقد أطال الصفدي مدحه وأكد على رشاقته وخاصة وهو ممتطي فرسه ، وانه لم يكن في مصر والشام من يلعب الكرة مثله وكل طنجي في الإقليمين يعرف فضله ، وذكر ابن حجر أن الرياسة في لعب الكرة انتهت إليه في زمانه ، ولم يكن يجاريه في ذلك إلا علاء الدين قطليجا وكلاهما من أولاد الناس.

ومن الألعاب الرياضية أيضا الصيد وهو من الهوايات المفضلة عند سلاطين المماليك وامرائهم وكان السلاطين والأمراء يخرجون إلى الصيد في سرحات الصيد المعروفة آنذاك ، وموعد رحلات الصيد عادة في أيام الربيع فكان الأمراء يخرجون لتربع خيولهم ويقومون هم بالصيد ، وكان لأولاد الناس نصيب وافر ومهارة في هذه الرياضة ، فيعتبر المؤرخ ابن أيبك الدوادار من أولاد الناس المشهورين بالمهارة في الصيد ، وقد ذكر ذلك عن نفسه عندما ذكر كيفية صرعه للطيور في الصيد بالبندق ، وكيف أن بعض الشعراء نظم أبيات يصف فيها طريقة وزمان الصيد ويمدح فيها ابن ايبك ومهارته.

وقد نال بعض أولاد الناس القرب من السلطان الناصر محمد بن قلاوون وذلك بسبب براعته في الصيد ، فقد قرب الناصر محمد الأمير حسين ابن أبي بكر بن جندر بك الرومي منه بسبب حظه في الصيد ، وأنعم عليه بتقدمة ألف وجعله أمير شكار أما الأمير جمال الدين عبد الله بن بكتمر الحاجب فكان من أولاد الناس الماهرين في الصرع بالبندق وصيد الطيور وكان يدَّعي إلى الأمير بركة في تعليمه الصيد ويقدم إليه التقادم الجليل عند الأدعاء له وكان الأمير ناصر الدين محمد بن صارم الدين إبراهيم حفيد الأمير منجك نائب الشام من المقربين من السلطان جقمق وخواصه ، "وكان مغرماً بالصيد" بارعاً فيه وما سقناه هنا من أمثلة تدل على أن أولاد الناس شاركوا في الرياضات التي كانت تشغل أهمية لدى الأمراء المماليك وأولادهم خلال العصر المملوكي ، وقد امتاز هؤلاء الأمراء بهذه الميزة الخاصة والهواية التي شغف بها كافة فئات طبقة المماليك في مصر.

هذا وقد ساهم أولاد الناس في مظهر اجتماعي آخر من مظاهر الحياة الاجتماعية وهو مصاحبتهم للأمراء والسلاطين وخروجهم إلى النزهة، بل أن أولاد السلاطين (الأسياد) كانوا يخرجون للتنزه في القاهرة ومتنزهاتها وخاصة شواطئ النيل، فقد صحب الأمير صارم الدين إبراهيم والده المؤيد شيخ في أكثر من نزهة بالقاهرة وزار معه بيوت الأمراء وأعطوا لهما تقادما جليلا.

هذا وكان المؤيد شيخ دائم الخروج إلى البارزية وبصحبته أمراء من أولاد الناس منهم الأمير محمود ابن الأمير قلطماي الدوادار. وكذلك كان خروج الناصري محمد بن السلطان الأشرف برسباي إلى دار القاضي زين الدين عبد الباسط المطلة على النيل لمشاهدة الأغربة المتوجه إلى قبرص، وكان بالنيل أربعة أغربة بكل غراب أمير من الأمراء وقدموا عرضا شاهده الأمير ناصر الدين محمد وجمع كثير من الأمراء على رأسهم الأمير جانبك الأشرفي الدوادار الثاني الذي صحب الأمير من القلعة، "وكان يوما مشهودا حُشِر فيه الناس من كل جهة لمشاهدة ذلك".

مظاهر الاحتفالات

تعددت الاحتفالات بالمجتمع المصري في العصر المملوكي، وبرزت خصائصها ومظاهرها بصورة واضحة حية من خلال النصوص التي وصلتنا من المصادر المملوكية، وخاصة مظاهر الإسراف الزائد في الاحتفال بالأفراح وعقد القران، أو الإحتفالات بالعقيقة والختان وغيرها من الإحتفالات العائلية التي كان يحتفل بها أولاد الناس والأمراء المماليك وعادة أهل مصر في تلك الفترة.

حفلات الزواج

من المعروف أن عصر سلاطين المماليك قد اشتهر بالبذخ والإسراف الزائد وخاصة في الأفراح وماكان ينفق عليها من تكاليف وأموال والامثلة كثيرة والنصوص التي تدل على هذا ملئت بها المصادر سواء في حفلات زواج أولاد السلاطين والأمراء أو عقيقتهم أو ختانهم وكان "مهم" احتفال عقد القران يستمر "مدة سبعة أيام بلياليها" ويجتمع فيه نساء الأمراء جميعاً.

وقد اشتهر خلال العصر المملوكي الأول عدة حفلات زواج نضرب بها مثالا عاماً على حفلات الزفاف في ذلك العصر، وأول حفل زواج للأسياد أولاد السلاطين على ابنة أمير زواج السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس على غازية خاتون ابنة سيف الدين قلاوون وعقد العقد بالأيوان من قلعة الجبل، وبلغ صداق هذه الزيجة مبلغ خمسة آلاف دينار دفع منها ألفي دينار.

بيد أن ما فاق الوصف في الإسراف والبذخ من حفلات زواج ذلك العصر زواج الأمير آنوك بن السلطان الناصر محمد على ابنة الأمير سيف الدين بكتمر الساقي وكان سن الأمير "عشر سنين أو دونها" وقد حمل المهر من خزانة الخاص بالقلعة إلى بيت الأمير بكتمر الساقي وهو عشرة آلاف دينار "ومئتان وخمسون تفصيلية حرير مثمنة ومائة نافجة-وعاء مسك- وألف مثقال عنبر خام ومائة شمعة موكبية وثلاثة أرؤس من الخيل مسرجة ملجمة، وخمسة مماليك على يد كل مملوك بقجة" في يوم العرس بلغ شوار العروس ما قيمته ألف ألف دينار مصرية، وكان مهما عظيما حمل فيه أكثر من ثلاثة آلاف شمعة، وحمل الجهاز من دار الأمير بكتمر على بركة الفيل على رؤوس الحمالين وعدتهم "ثمانمائة حمّال وستة وثلاثين قطار بغال، غير الحلي والمصاغ والجواهر، ولما مدُوا الشوار المذكور دخل السلطان وراه فما أعجبه وقال رأيت شوار بنت سلار وهو أكثر من هذا وأحسن، على أن هذا يا أمير بكتمر ما يقابل به آنوك" ومن النص يبرز لنا مدى امتعاض السلطان الناصر من تجهيز بكتمر لابنته وقد رأه قليلاً لا يوازي قدر الأمير آنوك وبالرغم من ذلك فقد أقيم له عُرس عظيم حضره نائب الشام سيف الدين تنكز وسائر الأمراء، ونصب الأمير قوصون الساقي صاريين عليهما نقط غُرم عليهما ثلاثون ألف درهم، وأطعم الناس بالأيوان، وبلغ جملة ما ذبح في هذا السماط من الخيل والبقر والغنم والأرز والدجاج فوق عشرين ألف رأس واستعمل منه ثمانية عشر ألف قنطار بالمصري من السكر لعمل الحلوى وغيرها وصرف من الأموال على هذا الزفاف ما يفوق الحصر.

واهتم السلطان الناصر محمد بحفلات زواج بناته على أولاد الناس أبناء الأمراء ففي عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣ كان عرس الأمير أمير علي ابن الأمير أرغون نائب السلطنة على ابنة السلطان، واعتنى السلطان الناصر بجهازها عناية عظيمة وعمل لها "بشخاناة وستارة ودايرة بيت زركش بمبلغ ثمانين ألف دينار وآلات الذهب والفضة بما ينيف على عشرة آلاف دينار"، وعمر لها السلطان مناظر الكبش عمارة جديدة ونقل الجهاز إليها ونزل بنفسه ليقف على نصب الجهاز، وأقيم العرس بمهم كبير ثلاثة أيام، وقد حضره نساء الأمراء قاطبة بتقادمهم وهداياهم التي بلغت قيمتها أربع مئة دينار، وأحيا هذا الحفل ثماني جوق من جوق مغاني القاهرة، وأنعم السلطان بعد انتهاء المهم على زوجات الأمراء بتعابي قماش كل حسب قدرها، وعم جميع الأمراء بالخلع وأنعم على والد العريس الأمير أرغون النائب زيادة على إقطاعه بمنية بني خصيب.

وعلى الجانب الآخر وعلى خلاف ما رأينا في المثالين السابقين من زمان أبناء الناصر محمد نراه يقوم بتزويج كل من الأمير أحمد بابنة الأمير طاير بغا وابنة الأمير أبي بكر على ابنة الأمير سيف الدين طقز دمر أمير مجلس "بغير عمل مهم" فلم يقيم لهما حفل زواج بل إن القران عقد في بيت الأمير قوصون الساقي وهو زوج أختهما، ولعل هذا راجع إلى غضب السلطان على كلا الأميرين فقد أخرجهما لفترة إلى الكرك ثم أمر بعودتهما وأمّرهما كل أمير إمرة طبلخاناة ثم قام بتزويجهما، والعكس حدث بالنسبة للأمير آنوك الذي كان مقرباً من السلطان ومختصاً به بالرغم من أن إخوانه كانوا أسن منه، ولعل السبب راجع إلى اختصاص أمه خوند طغاي بأبيه وعلاقتها به فكان تأثيرها على السلطان قوي ومن هنا نجد فتوراً واضحاً في علاقته بأبنائه من غيرها نقول ربما كان السبب كذلك.

وقام السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر بمصاهرة ابن ناس وهو الأمير أحمد بن بكتمر الساقي على ابنته من ابنة الأمير تنكز نائب الشام، وقدّم لها صداقاً بلغ عشرة آلاف دينار، وأقام مهما عظيماً، أمر بأن تصنع لها بشخاناة داير بيت بما قيمته ثمانين ألف دينار هذا وقد قام السلطان الناصر حسن بتزويج أخته زهراء ابنة الناصر محمد والتي كانت زوجة للأمير آقسنقر الناصري من الأمير طاز، "وأنعم السلطان علي الأمير طاز بثلاثمائة ألف درهم".

ولم يكن العصر المملوكي الثاني أقل إسرافا في حفلات الزواج والمصاهرات التي كانت تقام لأولاد السلاطين (الأسياد) وأولاد الناس بشكل عام بل رأينا خلال هذا العصر صورة واضحة من خلال صفحات المصادر تدل على مدى ما كانت تشكله المظاهر التي تعارف عليها في إقامة حفلات الزواج من عبء على خزانة الدولة وخزانة الخاص، حتى

على الأمراء الذين كانوا مجبرين على تقديم التقادم إلى هؤلاء الأسياد والأمراء ، وخاصة إذا ما كان الزواج يخص ابن سلطان أو ابنة سلطان.

وفي العصر المملوكي الثاني تزوج السلطان الظاهر برقوق من خوند فاطمة ابنة الأمير منجك نائب الشام وحمل جهاز العروس إلى القلعة وقيمته مئة ألف مثقال ذهباً ، ويحمله ثلاث مئة حمّال ، وعشرة أطباق مملوءة زركش ، وسبعون بغلا وصحب موكب الجهاز الأمير أيدكار الحاجب ، والأمير بهادر الأستادار والأمير قردم الحسني رأس النوبة ، والأمير يونس الدوادار ، والأمير قرقماش الخازندار وكان يوماً مشهوداً لأهل القاهرة وعند الزفاف كان "المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية".

وأثناء فتنة الأمير منطاش في عهد الظاهر برقوق قام الأمير الكبير منطاش بعقد قرانه على خوند بنت الملك الأشرف شعبان وأخت السلطان المنصور علي ، فحمل جهازها على خمس مئة حمّال ، وعشرة قُطر بغال ومشى بالحجاب والعسكر مع الجهاز فقام الأمير بالبناء عليها من ليلته واهتمّ للعرس اهتماماً زائداً ، وعلق بشربوشها دينارا زنته مئتا مثقال ودينارا زنته مئة مثقال.

ومن الزيجات التي كانت لها شهرتها في العصر المملوكي الثاني زواج الأمير طومان باي شاد الشرابخاناه على ابنة الأمير أقبردي الدوادار ، فقد عقد العقد بالقلعة وذلك لصلة القربى التي تربط الأمير طومان باي بالسلطان الأشرف قانصوه الغوري وحضر العقد سائر الأمراء والأعيان والقضاة الأربعة ، وقد وصف لنا ابن إياس زفاف الأمير طومان باي على زوجته ابنة أقبردي وصفاً دقيقاً فسار الأمير طومان باي وهو في غاية العظمة في الزفة وبصحبته الأتابكي قرقماش وسائر الأمراء قاطبة وبأيديهم الشموع الموقدة ، وشبه ابن إياس زفة طومان باي بزفة الأمير جانم قريب السلطان قايتباي عند زفافه على ابنة الأمير علاء الدين على ابن خاص بك وأخت خوند الخاصيكية.

ومن حفلات الزفاف المشهورة لأولاد الناس خلال العصر المملوكي بشكل عام عقد الأمير أحمد بن بكتمر الساقي على خوند قطلو مُلك ابنة الأمير تنكز نائب الشام وكان الساعي في زواجهما السلطان الناصر محمد بن قلاوون لمزيد اختصاصه بالأمير أحمد فاقام له عرس عظيم إلى الغاية ، ووقف السلطان على السماط بنفسه ، وحضرت العروس من بلاد الشام في تجمل زائد وبجهاز عظيم فيه داير بيت زركش قدر بمبلغ ستين ألف مثقال من الذهب ، وخلع السلطان على والد العروس خلعة كاملة.

وفي دولة المماليك الثانية اشتهر كذلك زواج الأمير قانصوه خمسمائة من ابنة الأتابكي أزبك من طخط من زوجته خوند ابنة الظاهر جقمق وقد عد العقد بجامع القلعة وحضره القضاة الأربعة واعيان الناس ، وكان عقداً حافلاً ، ووزع فيه السكر المذاب والفواكه ، وقد وصف ابن إياس مدى ثروة الأتابكي أزبك من طخط وأن ماله لا ينحصر لولا ما أنفقه على التجاريد من ماله الخاص وعلى عمارة الأزبكية ، وعلى جهاز ابنته سارة ، فقد جعل ابن إياس نفقة الأتابكي أزبك من الأسباب التي جعلت تركته عند موته تقل كثيرا عما كانت عليه وهذا دليل على مدى ما كان عليه الجهاز من القيمة.

العقيقة

هذا وجاء طعام العقيقة أيضا من مظاهر الإحتفالات في عهد السلاطين المماليك واشترك في هذا الاحتفال كافة طبقات الشعب في المجتمع المصري ، وخاصة عندما يكون المولود ذكر ، والعقيقة من سنن الدين الحنيف واتباعا لسنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، واحتفل كثير من السلاطين والأمراء المماليك بعقيقة أولادهم في العصر المملوكي.

فقد أقام السلطان المؤيد شيخ أبو المعالي محمد الذي أنجبه من ابنة الأمير تنم الحسني نائب الشام عقيقة حافلة ، خلع فيها السلطان على الأمراء وأركبوا الخيل بالقماش المذهب ، وبلغ قيمة ما صرف عليها خمسة عشر الف دينار ، ونودي بزينة القاهرة ومصر (الفسطاط) منذ يوم ولادته ورزق أيضا المؤيد شيخ بولد ذكر سماه موسى فأمر بدق الكوسات في القلعة ثلاثة أيام وأقام له عقيقة بلغ المصروف عليها خمسة عشر ألف دينار أيضاً ، وخلع على الأمراء المقدمين وأرباب الدولة "وأركبهم الخيول بالكنابيش الزركش والبدلات الذهب وكان يوماً مشهوداً" غير أن الأمير المذكور لم يطل عمره في الدنيا ومات بعد نحو خمسة أشهر.

هذا وعندما رزق الظاهر قانصوه المحمدي من زوجته جان كلدي الجركسية بولد سماه أحمد وأقام له يوم سابعه مهم حافل اجتمع فيه سائر الخوندات ونساء الأعيان بالقلعة ، وحمل الزمَّام جوهر العيني القبة والطير على رأس خوند جان كلدي وفرشت لها شقق الحرير ، ونثرت على رأسها خفائف الذهب والفضة وكان لها بالقلعة يوم مشهود.

حفلات الختان

ومن الاحتفالات العائلية أيضا التي أجمعت عليها مختلف الطبقات في مصر المملوكية الاحتفال بختان الأطفال ، وقد شملت هذه الظاهرة الاجتماعية أولاد الناس سواء من الأسياد أو أولاد الأمراء ، وقد بالغ الناس في إحياء هذه الحفلات.

وقد رعى السلاطين المماليك حفلات ختان أولادهم ، وجرت العادة عند ختن أحد أولاد السلاطين أن يقوم الأمراء المماليك بختن أولادهم مع ابن السلطان ، ففي ختان الملك السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس ختن أولاد كل من ابن الأمير عز الدين الحلي ، وابن الأمير شمس الدين سنقر الرومي الأشقر ، وابن الأمير سيف الدين سكز ، وولد الأمير حسام الدين ابن بركة خان ، وابن الملك المجاهد صاحب الموصل ، واولاد الملك المغيث صاحب الكرك الخمسة وابن فخر الدين الحمصي ، وعدد آخر من أولاد الأمراء المماليك وغيرهم ، وقام السلطان بختن بعض أولاد الأيتام والفقراء بمصر والقاهرة ، ولم يأخذ السلطان من الأمراء أي نقوط ، وحمل عنهم كلفة التقادم.

وقام السلطان الناصر محمد بختن ثلاثة من أولاد الناس أبناء الأمراء عندما عقد قران ابنته على الأمير أبي بكر بن أرغون النائب ، أما من قام بختانهم فهم أولاد الأمراء بكتمر الساقي وطشتمر حمص أخضر ، ومنكلي بُغا الفخري وعمل لهم مهم كبير ، وجرت العادة أن يقوم المزّين بالختان ثم يقوم الأمراء برمي الذهب في الطست ، فبلغ ما في طست ابن الأمير بكتمر الساقي أربعة آلاف وثلاث مئة وثمانين دينار ، وابن الأمير طشتمر حمص أخضر ثلاثة آلاف دينار ، وطست ابن الأمير منكلي بغا ألف دينار وثمان مئة دينار.

وقد احتفل السلطان الأشرف شعبان بختان أولاده أمير علي ، وأمير حاج وأقام الأفراح في القلعة سبعة أيام كاملة ومد أسمطة ومدات ، وأنفق فيه من الأموال ما لا يحصى ، ولكن عاب ابن حجر على ما ظهر في هذا الحفل من الفواحش والقبائح التي مارسها الأمراء ، وهذا أمر لا يليق بالمجلس السلطاني.

وكان ختان الأمير ناصر الدين محمد بن الأشرف قايتباي من نوادر المُهمات فقد جمع إليه السلطان سائر مغاني البلد، وأمر السلطان بأن تزين القاهرة فزينت زينة حافلة حتى داخل الأسواق، ومن حسن الطالع أن المماليك كانوا خارج القاهرة في تجريده إلى بلاد الشام وأدي غياب العسكر إلى هدوء القاهرة وأمن الناس من أذى المماليك، وقدم الأمراء كثير من النقوط وكان جملة التقادم من مال وخيول وقماش وسكر وأغنام وأبقار ما يزيد عن خمسين ألف دينار، وقدم إليه المقر الشهابي أحمد بن العيني طست وأبريق من ذهب، زنته نحو من ست مئة مثقال برسم الختان وقام السلطان بختن جماعة من أولاد الناس مع الجمالي يوسف من أولاد الأمراء الخاصكية حتى زادوا عن الأربعين ولد وكسي كل صبي كسوة على قدر أبيه وكان من جملة أولاد الأعيان ابن الخليفة أبو يزيد أمير المؤمنين عبد العزيز، وعثمان ابن الملك المنصور عثمان بن جقمق، وابن الجمجمة بن عثمان، وأولاد علاء الدين على ابن خاص بك، وغيرهم من أولاد الأمراء والأعيان، ونزل ابن الجمجمة وأولاد العلاء علي بن خاص بك إلى بيوتهم وشقوا القاهرة في موكب حافل وأمر السلطان أن يركب القضاة الأربعة أمام موكبهم.

صور من حياة أولاد الناس

رأينا فيما سبق مشاركة أولاد الناس في مظاهر شتى من الحياة الاجتماعية وقد أدركنا بعض صور من حياة أولاد الناس، اتضحت من خلال ورودها بين ثنايا سطور المصادر المملوكية، نحاول توضيح هذه الصور التي ألقت جانبا من الضوء على حياة أولاد الناس داخل المجتمع المملوكي.

كانت علاقة أولاد الناس أبناء الأمراء بالسلاطين المماليك علاقة قوية وكثيرا ما قدم السلاطين المماليك أولاد الناس على غيرهم مثل السلطان الناصر حسن والسلطان الأشرف شعبان ورعوَّهم وأنعموا عليهم بإمرات وقدموهم في الوظائف سواء وظائف أرباب السيوف أو الوظائف الديوانية، وقد شملت هذه الرعاية كذلك رعاية أولادهم إذا تعرض الأمراء لمكروه أو للقتل والموت، فنرى السلطان الأشرف شعبان بن حسين يسعى في استدعاء أولاد الأتابكي الجاي اليوسفي بعد خروجه عليه وموته، ويرتب لهم ما يكفيهم من النفقة في كل يوم، وأمر بأن يسكنوا القلعة، ومن المعروف أنهم إخوته لأمه ولكننا ندرك أن بعض السلاطين كان يقدم على قتل أو نفي أو دس السم لإخوته وللمقربين له حفاظا على كرسي السلطنة، ونحن ندرك أيضا ما وصف به الأشرف شعبان من صلف وإخراق بكل من يناوئه، غير أن السلطان الناصر شعبان لم ينس أنه تربى في حجر الجاي اليوسفي فرعى أولاده إكراما له ولأمه التي اختص بها كثيرا.

وكان من اهتمام السلاطين المماليك بأولاد الناس خروجهم في جنائزهم إذا توفي أمير من أولاد الناس وقد شارك كثير من السلاطين في تشييع جنازاتهم طوال العصر المملوكي، وعادة ما كانت تخرج الجنازات التي ينزل إليها السلطان من سبيل المؤمني، ومن الأمثلة على نزول السلطان للصلاة على خوند ابنة قرقماس الجلب زوج الأمير تمراز العزيزي، ووفاة فاطمة ابنة إينال العلائي زوج الأمير يشبك من مهدي صلى عليها في سبيل المؤمني في جمع فيه السلطان، وفي وفاة الأمير علي بن خليل بن حسن بن خاص بك وهو أحد أعيان أولاد الناس وكانت جنازته حافلة ونزل السلطان وصلى عليه في سبيل المؤمني وجاءت المصادر بكثير من الأمثلة المشابهة على هذا الأمر،

وكان من العادة أن تخرج كفارة أمام جنازة المتوفي، ويقوم الأهل بقراءة القرآن على قبر المتوفي بعد الدفن، وتستمر القراءة خمسة أيام تقريبا على القبر.

هذا وقد كانت الطواعين التي تصيب مصر كثيراً سبباً في وفاة العديد من أولاد الناس، وقد اشتهرت عدة طواعين في عهود مختلفة مثل الطاعون في عهد الأشرف برسباي، وطاعون في عهد الظاهر جقمق وطاعون في عهد الأشرف قانصوه الغوري، هذا فضلا عن الطاعون الكبير الذي أطلق عليه الطاعون الأسود والذي وصل إلى مصر في عهد الناصر حسن بن الناصر محمد، ففي طاعون ٨٣٣هـ/١٤٢٩م توفي فيه الأمير ناصر الدين محمد بن الأشرف برسباي، والملك الصالح محمد بن الملك الظاهر ططر وفي طاعون عام ٨٦٤هـ/١٤٥٩م توفي عدد كبير من المماليك "الظاهرية برقوق، والناصرية فرج، والمؤيدية شيخ، والأشرفية برسباي، والظاهرية جقمق، والسيفية، وهم مماليك الأمراء الذين يخدمون بباب السلسله، وأولاد الناس وهم أيضا شئ كثير جدا".

ومن الجدير بالذكر أن أولاد الناس قد شاركوا في دفن من طعن من أفراد الشعب المصري والمماليك وأولاد الناس، ففي طاعون عام ٧٧٦هـ/١٣٧٤م تزايدت الأمراض بالناس فبلغ عدد من يرد اسمه للديوان في كل يوم خمس مئة إنسان، وبلغت عدة الطرحاء الذين يموتون في الطرقات كل يوم أكثر من مئة طريح، فقام بمواراة الطرحاء الأمير ناصر الدين محمد بن آقبغا آص، والأمير سودون الشيخوني "فكان الناس يأتون بالأموات إليهما، فيغسلونهم ويكفنونهم ويدفنونهم ويقومون على أمرهم أحسن قيام".

ومن المفارقات الاجتماعية في عصر سلاطين المماليك والتي كانت سببا فيها طبيعة ذلك العصر وطريقة اعتلاء هؤلاء السلاطين العرش، أن سلطانا من سلاطين المماليك كان في الأصل من مشتروات أمير من أولاد الناس فقد أكد كل من أبي المحاسن وابن إياس أن الظاهر جقمق العلائي كان من مشتروات الأمير علاء الدين علي بن إينال اليوسفي الأتابك قدمه الأمير علاء الدين علي للظاهر برقوق فأنزله بالطباق وصار من جملة المماليك السلطانية، ثم تقدم وبقي خاصكيا، وترقى ليصبح خازندار في دولة المؤيد شيخ ثم طبلخاناة إلى أن أمر تقدمة ألف في عهد الظاهر ططر، وقد رعى الظاهر جقمق هذا الأمر في ابن الأمير علاء الدين علي الشهابي أحمد حين قدمه للمؤيد شيخ وسأل السلطان أن يجعله من جملة المماليك السلطانية، وعندما ساله المؤيد عن الشهابي أحمد قال له "يا خوند هذا ابن أستاذي أمير علي" وكان علاء الدين علي بن إينال قد أعتق الظاهر قبل إعطائه للظاهر برقوق وسكت عن ذلك، واستمر الشهابي أحمد بن أمير علي عند الظاهر جقمق وتولى تربيته.

ومن نافلة القول أن نذكر أن أولاد الناس من الأمراء عندما كان ينعم السلاطين عليهم بإمرات كانوا ينزلون من القلعة في موكب حافل إلى المدرسة المنصورية ببين القصرين، وتزين لهم الشوارع وتجلس المغاني في الحوانيت وتمد لهم الأسمطة من قبل الأمراء احتفالا بإمراتهم وإقطاعاتهم.

ومن الجدير بالذكر في سياق ذلك الحديث أن نلقي الضوء على بعض مساهمات أولاد الناس التي قدموها للمجتمع، فقد قام الأمير قطلو بك ابن قرا سنقر بتعمير القنوات وحفرها وكان مهندسا بارعاً في هذا المجال وقد أمره الناصر محمد بإجراء دراسة لحفر خليج من بركة

الحبش في سوق الخيل ومن ثم يدخل إلى القاهرة وبالفعل ذهب إلى حلوان ووزن مجرى النيل والماء وأخبروا السلطان بإمكان ذلك لكن يحتاج إلى ما قيمته ثمانين ألف دينار فاستكثر السلطان التكلفة وصرف نظره عن المشروع.

ووجه آخر من وجوه نشاط أولاد الناس في مجال الطرب والغناء وما قام به ناصر الدين محمد بن أمير علي بن شعبان بن الناصر حسن (ابن الأسياد)- كما كان يلقب- من تكوين جوقة قام فيها بالغناء والطرب فقد كان يعرف طرفا من الموسيقى مع طراوة الصوت، وقد اختص ببعض السلاطين مثل خشقدم الرومي والظاهر جقمق وأصبح من مشاهير الدولة وانصلح حاله وحال والديه، فقد كانت الفاقة قد ألمت بهم وخاصة بعد إنزال الأشرف برسباي لأولاد الأسياد من القلعة، فجاء ناصر الدين لتحسين أموال أهله وتحسنت أحواله وبنى بيتا تجاه جزيرة أروى وقد قصده الناس في قضاء حوائجهم وظل ميسور الحال إلى أن توفي.

ومن الأسياد كذلك من كان يميل إلى الطرب على قاعدة الصوفية الأمير ناصر الدين محمد بن جقمق، وكان يعرف طرفاً من ذلك الفن مع حسن المحاضرة والمذاكرة والعلوم الأخرى.

هذا وعلى الجانب الآخر رأينا في حياة أولاد الناس الاجتماعية أموراً تُستكمل بها الصورة وهي وجود بعض الاشقياء من أولاد الناس من الذين ساروا سيرة غير طيبة في المجتمع المصري، ولنضرب على ذلك بعض أمثلة دليلاً على أن الشئ لابد له من ضد لكي يستقيم الأمر، ففي حوادث عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م شكى شخص من أولاد الناس مطلقته إلى القاضي المالكي وادعى عليها بمبلغ فأجابته بالإنكار، فالتمس بيتها قي سويقه السباعيين وكان يتهمها بشخص، فعندما أرادوا الدخول عند القاضي للحلف ضربها بسكين في خاصرتها وسقطت ميتة، وهرب وفي يده السكين ملطخة بدمائها.

وحادثة أخرى ذكرها ابن إياس عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م كذلك عندما قام شخص من أولاد الناس بضرب امرأة بسكين في جنبها وهي سائرة بين الناس في الطريق وماتت هذه المرأة ولم يُعلم ما سبب ذلك.

وفي عام ٩٢١هـ/١٥١٥م رسم السلطان بشنق شخص من أولاد الناس كان مجرماً وله عدة قتلى، فشنق على باب الدرب الذي في السبع سقايات وكذلك في عام ٩٢١هـ/١٥١٥م أمر السلطان الأشرف قانصوه الغوري بشنق "أربعة اشخاص منهم جارية بيضاء رومية وجارية حبشية وصبي ابن ناس لفاف وشخص قواس" والسبب أن الصبي ابن الناس والقواس أفسدا الجاريتين وحسنا لهما قتل سيدهما وكان من أولاد الناس المقطعين فقتلوه وألقوا به في المرحاض، وأخذوا كل ما في بيته وسافروا تجاه أطفيح إلى أن تم القبض عليهم، وأرسلوا للسلطان وعندما تأكد السلطان من الوقعة أمربشنقهم في أقرب مكان للمكان الذي قتلوا فيه سيدهم وهو بالقرب من باب سعادة.

وبعد فهذه صور من حياة أولاد الناس الاجتماعية والتي ظهر منها أن هذه الفئة من طبقة المماليك كان لها وجود على الساحة الاجتماعية في مجتمع عصر سلاطين المماليك، وإن كان يبدو أن مشاركتهم تعد قليلة نسبياً فهذا بالطبع ناتج من كونهم فئة قليلة في قلب طبقات كثيرة شكلت المجتمع المصري في ذلك العصر.

من المواد العلمية التي قامت الدكتورة نهلة أنيس بتدريسها:

- الإستراتيجية الحربية الإسلامية.
- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ الحضارة الإسلامية.
- تاريخ الخلفاء الراشدين.
- تاريخ الدول الإسلامية المعاصرة.
- تاريخ الدولة الأموية.
- تاريخ الدولة الأيوبية.
- تاريخ الدولة العباسية.
- تاريخ المغرب والأندلس.
- تاريخ دولتي سلاطين المماليك.
- تاريخ مصر في عصر الولاة.
- التاريخ والمؤرخون عبر العصور.
- الدول المستقلة في شرق الدولة العباسية.
- السفارات والدبلوماسية الإسلامية.
- السيرة النبوية العطرة.
- مدخل إلى علم الآثار.
- مصادر التاريخ الإسلامي.
- المعالم التاريخية والمواقع بمكة والمدينة.
- منهج البحث التاريخي.
- نصوص تاريخية إسلامية.